

(٢)

القدس الجديدة

لو أن أى زائر متحذلق من المريخ كان يتجول فى كنيسة ويستمنستر يوم الثلاثاء ٢ يونيو ١٩٥٣ م، فلا بد وأن يدرك بسرعة أن ثمة احتفالاً عاماً كبيراً على وشك أن يحدث. فقد كان هناك استعداد لحفل تتويج. ومع الوقار اللازم، كان ثمة حاكم جديد على وشك أن يقسم اليمين، ويجلس على العرش، ويضع التاج على رأسه، وتُؤدى له مراسم الولاء والطاعة، ثم يكال له المديح علناً. ولو أن تفتيشاً جرى لعدة ثوان، لكشف لرجل الفضاء القادم من المريخ أن ما كان على وشك البداية كان قداساً دينياً، على الرغم من أن الاستعراض التمهيدي فى الخارج يكاد يكون عسكرياً خالصاً. إذ إن الاحتفال كان به قدر كبير يتعلق بالرب. من خلال العهود التى قدمت له، بأن يكونوا مؤمنين به، ويصلون له، ويحمدونه. أكثر مما يتعلق بالسياسة. وكان الوزراء الرئيسيون الحاضرون والذين تتركز عليهم الأضواء ووزراء دينيين، أما وزراء الحكومة فكانوا مدفونين فى مكان ما داخل زحام المتفرجين، ولم يكن لهم أى دور بالفعل فى الاحتفال. فهل يُحتمل أن هذه كانت ثيوفراطية؟(*)

وربما يكون القادم من المريخ قد قفز إلى استنتاج مضلل آخر: أن الأمة التى يتم تتويج ملكها فى احتفال كانت تسمى إسرائيل، وأن عاصمتها القدس؛ لأن الخدمة بدأت بصلاة من سفر من الكتاب المقدس الخاص ببني إسرائيل القدامى من افتتاحية المزمور رقم ١٢٢:

«فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب. تقف أرجلنا فى أبوابك يا أورشليم. أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها، حيث صعدت الأسباط، أسباط

(*) حكومة دينية.

الرب شهادة لإسرائيل ليحمدوا اسم الرب . لأنه هناك استوت الكراسى للقضاء كراسى بيت داود . اسألوا سلامة أورشليم . ليسترح محبوبك . ليكن سلام فى أبراجك راحة فى قصورك» .

هذا الغموض بين لندن - إنجلترا ، والقدس - إسرائيل ، عاد يتكرر فى عدة نقاط فى الاحتفال . حقًا كانت خدمة تنويج الملكة إليزابيث الثانية تتطلب منها أن تقسم اليمين الخاص بالمنصب ، والذي كانت بدايته على الأقل متطابقة تمامًا مع عالم لندن إنجلترا الحقيقى . وفى الجملتين الافتتاحيتين من القسم الذى أقسمته ، أولاً : أنها سوف تحكم البلاد بحكمة تحت سلطتها . وفى ذلك الوقت كانت هذه البلاد تتضمن الأجزاء الباقية من الإمبراطورية (بما فى ذلك الكثير فى أفريقيا) ، والأملاك القديمة التى تتحدث الإنجليزية فى كندا وأستراليا وأفريقيا وسيلان ، وكذلك بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية ، وثانياً : أقسمت على أنها سوف تنشر العدل برحمة . وكل القضاة فى كافة المحاكم كانوا يجلسون باسم التاج فى جميع هذه الأراضى ، وكانت الملكة تقسم بهذا لصالح كل واحد منهم . وهم بدورهم أقسموا على الولاء لها . وبهذا تصبح الرحمة جزءاً من القانون العام .

ثم رحلت الحقيقة المعاصرة وهبطت النزعة التصوفية الملوكية مرة أخرى . والجمل الأربع الباقيات - وهى الجزء الأكبر من القسم الذى تختم به التزاماتها كملكة - تلزمها بأن تدافع عن ديانة الدولة فى أحد الأجزاء ، على الرغم من أنه هو الجزء الرئيسى من هذه الأراضى الكثيرة ، أى إنجلترا . وكان هناك شىء مهم يقال عن شخصيته الدينية الفريدة ، شىء يمكن فهمه على أفضل وجه فى ضوء الإشارات المجازية (أو الميتافيزيقية) إلى بنى إسرائيل التى أوردناها بالفعل . بيد أن شيئاً كان مشفراً ، وكان يتطلب أيضاً معرفة جيدة بتاريخ الصراع الدينى فى إنجلترا على مدى القرون الخمسة الأخيرة .

وبينما كان كبير أساقفة كانتربرى ، الدكتور چيوفرى فيشر يتولى القداس ، سألها بشكل رسمى : «هل ستحافظين بأقصى قوتك على قوانين الرب وعلى المغزى الحقيقى للإنجيل؟ وهل ستحافظين بكل قوتك على الديانة الإصلاحية البروتستانتية التى أرساها القانون فى المملكة المتحدة؟ هل ستحافظين بصورة ثابتة

على استقرار كنيسة إنجلترا، والمذهب والعبادة والنظام، والحكومة بالتالي، كما أرساها القانون في إنجلترا؟ وهل ستبقي كل الحقوق والامتيازات لرجال الإكليروس والأساقفة في إنجلترا كما يقضى القانون؟ وأجابت ويدها على الكتاب المقدس: «أعد بأن أفعل هذا كله».

ولابد أن الملكة كانت مدركة تماماً لأن كبير أساقفة كانتربوري الذي أخذ عليها قسمها البروتستانتي والذي كان سيتوجهها، جيو فري فيشر، قد عينه في منصبه هذا أبوها جورج السادس. ولابد أنها كانت مدركة أيضاً أنه على الرغم من الكلمات المسطورة على الصفحة، فلا تستطيع هي أو هو فعل أى شئ من الأشياء التي أقسمت لتوها على أن تفعلها؛ إذ إن السلطة السياسية الحقيقية كانت مستقرة في مكان آخر - في أيدي البرلمان والسياسيين الذين كانوا مجرد مشاهدين للاحتفال. والواقع أنه لم يكن جورج السادس - فعلاً - هو الذي قرر أن الدكتور فيشر هو الرجل المناسب لتولي منصب رئيس أساقفة كانتربوري وكبير أساقفة إنجلترا كلها بعد موت وليم تيمبل سنة ١٩٤٤، وإنما كان الذي قرر ذلك هو رئيس وزرائه آنذاك ونستون تشرشل.

ومع هذا فإنها كانت تؤدي قسمًا عاماً بأنها، باعتبارها حاكمة، مسئولة عن الصالح الديني والروحي لشعب إنجلترا - تماماً مثلما كان الملك سليمان مسئولاً عن شعب إسرائيل - كما هي مسئولة عن مصالحهم الدنيوية والمادية. ومع هذا فإن قدرتها المباشرة على التأثير في الصالح الروحي والديني للشعب كانت هامشية. فمن حيث الممارسة ليست بوسعها أن تفعل ما هو أكثر من أن تكون قدوة. وفي النظرية الدستورية، لا تتصرف الملكة سوى بناء على نصيحة وزرائها. فهل يتيح لها قسم التتويج الذي أقسمته أن ترفض تعيين شخص ما ينتمي إلى الديانة الكاثوليكية الرومانية في منصب رئيس الوزراء؟ إنها ليست مخولة بذلك. وإذا ما أوصى هو بشخص ما ليكون رئيس الأساقفة الجديد في كانتربوري وهي تظن أن لا يعتد به في مسائل العقيدة، فهل يمكنها أن ترفض، بسبب القسم الذي أقسمته، التعيين على هذا الأساس؟ لم يكن هذا بوسعها. ففي سنة ١٨٢٩م كان الملك جورج الرابع مجبراً بواسطة وزرائه على أن يوافق، ضد إرادته وضد تفسيره الخاص للقسم الذي

أداه فى حفل التتويج ، على التحرير الكاثوليكي (وهو ما كان ضد رغبات أساقفة كنيسة إنجلترا مباشرة) . وسرعان ما صارت هذه السابقة جزءاً من القانون الدستورى الإنجليزى . وبطبيعة الحال فإن الحاكم قد يكون لديه الوعى ، ولكن لم يكن له الحق فى رفض الموافقة على تشريع يتعارض مع وعيه . وإذا ما كان يشعر بهذا بقوة كافية فإن الطريقة الوحيدة أمامه ستكون هى التنازل عن العرش .

ومما تسبب فى ارتباك الزائر القادم من المريخ ، فإن الأمور فى حفل التتويج ليست فى الواقع كما تبدو ؛ إذ إن العناصر الباقية المعادية للكاثوليكية فى طقوس الاحتفال لا بد وأنها كانت تعتبر أكثر من مجرد عناصر رمزية فى عيون أولئك الذين شاركوا فى الاحتفال . ومع هذا ، فمن الواضح أن الحدث كان حدثاً دستورياً أساسياً فى حياة الأمة . بيد أن العالم الذى جرت فيه مراسم التتويج هو عالم من المجاز والوهم . وهذا أيضاً ليس مصادفة . فالإنجليز «يتخيلون مجتمعهم» (إذا ما استخدمنا تعبير بندكت أندرسون المفيد) بفعل من أفعال الذاكرة . وهم يميلون إلى الإجابة عن السؤال «من نكون نحن؟» بأن يسألوا بدورهم «من كنا نحن؟» وحفل التتويج هو المثل الأعلى على عملية الفعل هذه . وبقدر ما هى إجابة غير مرضية . وسوف نستكشف مدى قصورها فيما بعد . فإن ذلك راجع لأن الإنجليز يحاولون سحب الماء من بئر جاف .

وحفل التتويج عالم تبدأ فيه الأمور الكبيرة بجسارة ولكنها ، مثلما يحدث فى الحلم ، تعنى شيئاً مختلفاً تماماً . وإسرائيل مجرد سياق لا يعنى إسرائيل الكيان الحديث . إنها وسيلة لتمييز إنجلترا باعتبارها استثنائية وفريدة تربطها علاقة خاصة بينى إسرائيل الذين تحدث عنهم العهد القديم ، وهى علاقة المصطلح الفنى الدال عليها هو «علاقة تصنيفية» (وسوف نناقش معناها مناقشة وافية فى الفصل التالى) . وهذا ما يجعلنا نتعقل الحقيقة الأخرى المحيرة ، ومؤداها أنه طالما أن هناك عدواً مؤسسياً لإنجلترا ، فإن حفل التتويج الذى هو فعل من أفعال تذكر التاريخ . وهو تذكر مقصود . يقول إن هذا العدو هو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . كما أن السبب الكامن أيضاً سبب تصنيفى . ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية ، على مدى وجودها ، قد زعمت أنها هى نفسها إسرائيل الجديدة . فإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية هى

إسرائيل الجديدة، فمن الواضح إذن أن المجلتر ليست كذلك. والوظيفة الأولية لهذه العناصر الرمزية المعادية للكاثوليكية في الدستور الإنجليزي هي الحفاظ على وضعية المجلتر الفريدة، باعتبارها الشعب المختار الذي اختاره الرب خلقاً للشعب المختار الذي تحدث عنه العهد القديم. وقد طرحت مزاعم كل من الكنيسة الكاثوليكية والمزاعم اليهودية في هذا الشأن جانباً. وفي كل من الحالين، فإن الدستور الإنجليزي هو ما يسمى «ذو المجالس الخارقة Supersessionist». بيد أن هذه ليست عنصرية أو تعصباً دينياً؛ إذ إن الاعتقاد بأنه لا اليهودية ولا الكاثوليكية الرومانية ديانتين حقيقتين، هو اعتقاد قد يتبناه أى شخص عاقل تماماً ومتحضر. وعلى أية حال، فإن النظر إلى هاتين الديانتين باحتقار قد يؤدي إلى العنصرية أو التعصب.

وفوق هذا كله، فإن تصنيف العهد القديم هذا ينطبق على ذلك الجزء من مراسم التتويج الذى يسمى «المسح». وهنا كانت الرابطة بين لندن ١٩٥٣م والقدس قبل حوالى ثلاثة آلاف سنة أكثر وضوحاً وأكثر تضليلاً. وأكثر كشفاً. فالمسح بالزيت المقدس هو العلامة القديمة التى لا يمكن أن تخطئها العين على الكهانة والملكية. وقد كانت تستخدم بهذه الطريقة فى مصر القديمة، ولدى القبائل العبرية التى أقامت بها قبل ذلك الحدث المعروف باسم الخروج وأخذت هذا الطقس الرمزي الفرعوني لنفسها. والملك سليمان الذى حكم بنى إسرائيل بعد قرون قليلة من سنوات الخروج، كان حتماً من بين أولئك الملوك القدامى الذين مسحوا بالزيت دليلاً على حكمهم الملكى.

كانت كلمات حفل التتويج سنة ١٩٥٣م واضحة صريحة فى هذه النقطة. فبينما وضع الدكتور فيشر قطرة من الزيت على بشرة الملكة، كان يتلو، أولاً: «اتركى يديك تمسحان بالزيت المقدس»، ثم «دعى صدرك يمسح بالزيت المقدس»، وأخيراً «اتركى رأسك تمسح بالزيت المقدس» مثلما يمسح الملوك والكهنة والأنبياء، ثم غير طبقة صوته قائلاً و«كما مسح سليمان ملكاً على يد صادوق الكاهن وناثان النبى، كذلك تمسحين وتكرسين وتباركين ملكة على الشعب، الذين أعطاهم الرب إلهك لهم لكى تحكميهم...»

وهذه الكلمات تجد لها صدى فى ترنيمة صادوق الكاهن المأخوذة عن النسخة

المعتمدة سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ٣٩-٤٠ ، ومن ثم وضع موسيقاها جورج فريدريك هاندل ، وكانت هذه الترنيمة تنشد أثناء تتويج إليزابيث الثانية ، كما كانت قد أنشئت في حفل تتويج أبيها «فنزل صادوق الكاهن وناتان النبي وبناياهو بن يهوياذاع والجلادون والسعاة ، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود ، وذهبوا به إلى جيحون . فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان . وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحي الملك سليمان . وصعد جميع الشعب وراءه ، وكان الشعب يضربون بالناي ويفرحون فرحاً عظيماً حتى انشقت الأرض من أصواتهم» .

وتجادل ليندا كولى في كتابها "Britons :Forging the Nation" بأنه في القرن الثامن عشر كان استخدام الموسيقى أكثر الوسائل فعالية لترويج فكرة أن بريطانيا هي إسرائيل الجديدة :

«منذ اللحظة التي استقر فيها جورج فريدريك هاندل في لندن ، أخذ يتملق المحيطين به ، ولاسيما من يحمونه في البلاط ، بأن يضع في موسيقاه مقارنات منتظمة بين حوادث التاريخ البريطاني وما كابده أنبياء وأبطال العهد القديم . والترنيمة التي ألفها لحفل تتويج جورج الثاني سنة ١٧٢٧م ، والتي كانت تعزف في كل حفل تتويج لاحق ، هي مثال نموذجي في الموضوع ولكن مؤلفاته هي التي استغل فيها المشابهة بين إنجلترا وإسرائيل إلى آخر مدى . إذ إن مؤلفاته الموسيقية إيستر ، وديبورا ، وأثاليا ، ويوداس مكابيوس (التي ألفها على شرف الدوق كامبر لاند بمناسبة انتصاره على اليعقوبيين في كوللودن) ويوشع ، وسوزانا ، ويافيثا ، وبنى إسرائيل في مصر ، وهي مقطوعة موسيقية تقوم دليلاً على نفسها . كلها مؤلفات تتناول في موضوعها الرئيسي تخليص بني إسرائيل من المخاطر على أيدي زعماء يلهمهم الرب . وكان ما يريد هاندل من مستمعيه أن يخرجوا بعبارة وعظة واضحة : في بريطانيا العظمى ، التي هي إسرائيل ثانية وأفضل ، ثمة ماضٍ عنيف مضطرب يجب علاجه على أيدي السلالة الهانوفرية البروتستانتية الجديدة القوية ، مما يجلب عصراً من الرخاء والوفرة التي لا تبارى» .

وعبارة ليحفظ الله الملك تستخدم في مكان آخر في العهد القديم لإعلان تتويج

ملوك بنى إسرائيل كما جاء فى سفر صموئيل الأول، الإصحاح العاشر: «فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذى اختاره الرب إنه ليس مثله فى جميع الشعب. فهتف كل الشعب وقالوا ليحيى الملك». وعندما كان النشيد الوطنى، الذى تغيرت عبارته منذ موت جورج السادس إلى حفظ الله الملكة، ينشد بأصوات الجمع - وكل الأمة فى الحقيقة - فى نهاية حفل التتويج، اتجهت الملكة إلى الباب الغربى الكبير فى الدير وهى تضع تاج إنجلترا وتحمل شعارات الملك القديمة. (وهى رموز منتظمة فى العهد القديم). كذلك فإن تاريخ النشيد الوطنى يعود إلى عصر الأسرة الهانوفرية عندما، وحسبما توضح ليندا كوللى، تم إبراز الرابطة بين ملوك وملكات إنجلترا وملوك بنى إسرائيل لأسباب إيديولوجية.

وتماماً مثلما كان سليمان يحكم وفقاً للأسلوب الذى تم إرساؤه فى الأسفار الخمسة الأولى التى تشكل التوراة العبرية، فإن الملكة إليزابيث تسلمت نسخة من الكتاب المقدس المسيحى، الذى يبدأ بنفس هذه الأسفار الخمسة، أسفار موسى «لكى تبقى جلالتك على الدوام وفى ذهنك قانون الرب وإنجيله، بمثابة القاعدة التى تسير عليها حياة الأمراء المسيحيين وحكوماتهم». وقال لها كبير الأساقفة نحن نهديك هذا الكتاب، أقيم شىء يستطيع هذا العالم توفيره، ثم يغير وسيط المجلس لكنيسة استكتلندا، الذى كان يسهم مع كبير الأساقفة فى المراسيم نغمة الصوت بقوله: «هنا الحكمة؛ هذا هو القانون الملكى؛ هنا تجليات الرب الحية».

إلا أنه مرة أخرى لا تتوافق الكلمات مع الحقيقة تماماً. إذ لم يكن أحد يتوقع من الملكة أن تصر على أن يراعى رعاياها كل تفاصيل قوانين موسى. ذلك أن ماتم التأكيد عليه هنا كان جانباً من جوانب الهوية الوطنية، وليس مصدراً للتشريع يستخدمه البرلمان. والجانب محل التساؤل لم يكن مجرد أن الأمة الإنجليزية أمة مسيحية، إذ إن هذه قد تكون نقطة تبسيط مخل. إذ إن ما كان يتم التأكيد عليه مرة أخرى، هو أنه بالطريقة التى تربط بها إنجلترا نفسها مع الرب، يمكن مقارنتها بإسرائيل القديمة، كما يمكن مقارنة الإنجليز ببنى إسرائيل.

والحقيقة أن كل الدول الوطنية فى العالم الحديث، مع الاستثناء الصارخ لبريطانيا، تحدد الأغراض الأساسية المشتركة والواجبات المتبادلة بين الحكام

والمحكومين بواسطة دستور مكتوب . وأكبر وثيقة فى الدستور الأمريكى هى إعلان الاستقلال، الذى أقره الكونجرس فى الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦ م، والذى يعلن الحقوق الشهيرة :

«نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها براهين بذاتها، فإن الناس جميعاً قد خلقوا متساوين، وأن خالقهم أسبغ عليهم حقوقاً معينة لا يمكن انتهاكها، وأن من بين هذه الحقوق، الحياة والحرية والعيش فى سعادة؛ وأن لضمان هذه الحقوق قامت الحكومات بينهم؛ لتستمد سلطتها العادلة من موافقة المحكومين؛ وأنه حينما تصبح أية حكومة مدمرة لهذه الغايات، فمن حق الشعب أن يغيرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة. . .»

وهناك دول أخرى لديها إعلانات أخرى للمبادئ الأساسية فى دساتيرها المكتوبة، على الرغم من أنه لا يوجد دستور بهذه الروعة . وبريطانيا العظمى التى أشرفت على استقلال عدد من الأمم شديد التنوع، لم تكن كلها مضطرة إلى الصراع من أجل الاستقلال بهذه الصورة المؤلمة، رأت أن كل هذه الأمم كانت مجهزة بدستور مكتوب قبل أن تفصل عن الدولة المستعمرة . ولكن بريطانيا العظمى نفسها ليس لديها دستور مكتوب، وليس لديها إعلان مدى للحقائق التى هى براهين ذاتها، وبدلاً من ذلك لديها حفل التتويج . ففى هذه المراسم يقدم الدستور البريطانى قوله الواضح الوحيد عن واجبات الحاكم المتوج، على الرغم من أن هذه الواجبات ينفذها وزراء منتخبون .

وبينما كان سيف الدولة تتم مباركته، استعداداً لتمريضه إلى الملكة بأيدى كبير الأساقفة وغيره من كبار الموظفين، كان يترنم :

«اسمع صلواتنا يارب فنحن نبجلك، وكذلك وجهه وساند خادمته الملكة إليزابيث لكى لا تحمل السيف عبثاً؛ ولكن لتستخدمه وزيرة للرب لإرهاب وعقاب من يرتكبون الشر، ولحماية وتشجيع أولئك الذين يفعلون الخير من خلال سيدنا يسوع المسيح . آمين» .

وبينما يمرر السيف إليها، وبينما هى تمسكه، يستمر فى ترنيته :

«تقبلى هذا السيف الملكى المجلوب الآن من مذبح الرب، وقد سلم إليك بأيدينا نحن الأساقفة وخدام الرب، على الرغم من عدم جدارتنا بهذا السيف. افعلنى العدل، أوقفى نمو عدم المساواة، احمى كنيسة الرب المقدسة، ساعدى الأراامل واليتامى ودافعى عنهم، أعيدى الأشياء التى تلاشت وحافظى على الأشياء التى أعيدت، عاقبى وأصلحى ما هو فى فوضى، وثبى ما هو فى حال ونظام سليم:

لأن فعل هذه الأشياء قد يجعلك مجيدة بكل الفضائل؛ وكذلك اخدمى بإخلاص سيدنا يسوع المسيح فى هذه الحياة حتى يمكن أن تحكمى إلى الأبد معه فى الحياة الآتية. أمين».

إن الملك يجسد التاج؛ والتاج يمثل كل السجايا الأخلاقية المرئية وغير المرئية التى يرغب الإنجليز فى أن تسبخ عليهم. أما ماهية هذه السجايا فقد أرسيت فى احتفال دولة وقور، وذلك الحدث الذى وقع يوم ٢ يونيو سنة ١٩٥٣م هو الذى افتتح عهد الملكة إليزابيث الثانية، وهو الذى تعثر فيه زائرنا المريكى المحتار.

ماذا كانت تلك السجايا الأخلاقية بخلاف التحديد الوارد فيما سبق؟ لا يمكن الإجابة بسهولة على الأسئلة بمجرد الإشارة إلى الكتاب المقدس. إذ إن الإجابة قد وضعت بعناية ضمن مراسم عملية التتويج نفسها. وربما كان معظم الناس فى بريطانيا الخمسينيات راضين بالقول بأن القيم الجوهرية لمجتمعهم كانت مسيحية. والعبارة الأكثر شمولاً وهى «يهودية-مسيحية» لم تكن قد شاعت بعد. ولكن لا بد أنهم كانوا يعنون المسيحية كما كانت مفهومة بالاتفاق السائد آنذاك فى الكنيسة الأنجليكانية. ومن المحتمل أن الزعماء الأنجليكان فى تلك الفترة كانوا يصرون على أنه لا يوجد فرق حقيقى بين مبادئ كنيستهم الأخلاقية وتعاليم الكتاب المقدس، ولكنهم بالطبع كانوا مخطئين. لأن الزعماء الأنجليكان بعد خمسين سنة، أو قبل خمسين سنة بالنسبة لهذا الأمر، كانوا هم أول من أصر على ذلك. إنها إحدى مزايا الدستور غير المكتوب أن الأمور التى تأخذها أمة على أنها من البديهيات، يمكن أن تتغير مع مرور الزمن وتغير الظروف. وتتويج سنة ١٩٥٣م الذى كاد أن يتطابق مع تتويج إدوارد السابع سنة ١٩٠٢، قال شيئاً مختلفاً للغاية عن الأمة وقيمها.

إذ كان الأساس الأخلاقى الأنجليكانى الموجود سنة ١٩٥٣م- وبوسع المرء أن

يسميه الأساس الأخلاقي الوطني - ذا أصل حديث نسبياً . إذ إن وليم تمبل سلف الدكتور فيشر كبير أساقفة كانتربروري ، وبعد فترة طويلة أمضاها ككبير أساقفة يورك ، كان مسئولاً إلى حد كبير عن إنتاج نظرية عن مسئولية الدولة تجاه مواطنيها وكانت نظرية أكثر نشاطاً وتدخلاً - وأشد يسارية - مما كان أسلافه يجذبونه . إذ عاش هو وجيله خلال الحرب العالمية الأولى وفترة الكساد الكبير . وقرر أن كنيسة إنجلترا لا تستطيع أن تتحى جانباً بعيداً عن معاناة الناس العاديين في إنجلترا . وبصفة خاصة ، أسهم في الأفكار التي صارت مترجمة في دولة الرعاية (الرفاهية) التي قامت فترة ما بعد الحرب ، وكان ذلك مصطلحاً من اختراعه . وقد عقد في زمن الحرب مؤتمراً شهيراً باسم «مؤتمر ما لقرن» - في ما لقرن بورسسترشاير سنة ١٩٤١م - وفيه دعى أناس من ذوى المكانة والقدر ليناقشوا سوياً - وبصفة خاصة - كيف يبنون عالمًا أفضل بعد الانتصار في الحرب العالمية الثانية . وكانت إحدى النتائج متمثلة في كتابه الذي صدر سنة ١٩٤٢م «Christianty and Social Order» (الذي باع ١٤٠ ألف نسخة وكتابته «The Church looks Farward» الذي صدر سنة ١٩٤٤م .

وعلى الرغم من كونه ابناً لرئيس أساقفة سابق في كانتربروري ، ومن كونه هو شخصياً ناظر مدرسة عامة سابقاً ، فإن تمبل كان ينتمى إلى حزب العمال (١٨ - ١٩٢٥) ، وكان رئيساً لرابطة العمال التعليمية . ويدين مجلس الكنائس البريطاني ومجلس الكنائس العالمى بتشكيلهما إلى حد كبير لمبادراته ونفوذه الذى جعل الكنيسة تؤيد مرسوم التعليم سنة ١٩٤٤م ، الذى طرح مبدأ التعليم الحر لكل إنسان ، والذى تموله الدولة . وقد وصف وضع تمبل اللاهوتى بأنه نوع من المثالية الهيجلية التى تحبذ الروابط الحميمة بين الكنيسة والدولة ، والتى تشجع رجال الكنيسة الذين يتحدثون عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك الزمان . وكانت علاجاته للأمراض الاجتماعية تتراوح صعوداً وهبوطاً مع النزعة الأبوية للدولة . وكان اعتراضه على الرأسمالية مستمداً من رومانسية ما قبل عصر التصنيع - إذ كان يساوى بين المنافسة التجارية والأنانية - أكثر من كونه مستمداً من الاشتراكية . ولأنه كان رجلاً إنجليزياً رقيق الحاشية راقياً ، وهو أفضل تجسيد لمذهب الهاوى حسن النية ، كان وعيه قليلاً بالاقتصاديات أو أى فهم للصناعة . ولكن إنجازاه كان

متمثلاً في جعل نوع بريطانيا التي كانت أخذة في الظهور سنة ١٩٥٣م (بعد ثمانية أعوام من موته) تبدو مثل نموذج لمجتمع مسيحي مثالي . وفي كتابه عن تاريخ الاشتراكية المسيحية في بريطانيا يكتب آلان ويلكينسون : «من الحيوى أن ندرك أن تمبل لم يكن نبياً اشتراكياً معزولاً ولكنه كان واحداً فكر ودبر، وفعل الكثير لتقوية الوفاق الاجتماعى . لقد كان تمبل داخلياً بأكثر مما يجب، كما أنه إلى حد كبير كان نتاجاً لمؤسسات قوية فى الكنيسة وفى الدولة، ولم يكن أبداً ليصير نبياً ثورياً ضدهما» .

وكان جزء من تراث تمبل يتمثل فى الإيمان بأن النبوة الاجتماعية الثورية لم تعد ضرورية، فقد صارت غير ذات قيمة بوجود الدولة- الراعية . إذ إن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة فى فترة ما بعد الحرب والتي قامت بها حكومة حزب العمال سنة ١٩٤٥، تبناها إلى حد كبير حزب المحافظين الذى عاد إلى السلطة سنة ١٩٥١م، حتى تلك الإصلاحات التي عارضها بمرارة عندما عرضت على البرلمان . وقد وصف هارولد ماكميلان رئيس الوزراء فى أواخر خمسينيات القرن العشرين هذا الوفاق (الذى كان ينتمى إليه) بأنه «اشتراكية أبوية» . وكان تقرير بفريديج الصادر سنة ١٩٤٢م قد وعد بمجتمع فيما بعد الحرب تكون فيه كلمة : يحتاج- بالمصطلحات الحديثة الفقر بكل أشكاله - قد تلاشت بفضل أعمال الحكومة . وتحت مشروعه لا بد من أن تشمل الناس من كل الطبقات مظلة تأمين إجبارية ضد كل أنواع المصائب . وعلى الرغم من أن المشروع كان تقدمياً بالنسبة لعصره، فإن عينة من فرائسته فى الاتجاهات الاشتراكية يمكن استجلاؤها من هذا المستخرج : «فى السنوات الثلاثين القادمة، سيكون على ربوات البيوت بوصفهن أمهات أداء عمل حيوى لضمان استمرار الجنس البريطانى والمثل البريطانية فى العالم» . هذا الطموح كان مقبولاً بنفس الدرجة بعد عشر سنوات أيضاً . وإذا كان وليم بفريديج قد قدم بروقة الدولة الراعية فى فترة ما بعد الحرب، فلا شك فى أن وليم تمبل - وهو صديق بفريديج من أيام جامعة أوكسفورد- هو الذى قدم المباركة اللاهوتية للأخذ بها . وربما يقال إن فيشر كان أقل حماسة بصورة أو بأخرى . بيد أنه لم يقوّض ما أحرزه تمبل .

كان تمبل واحداً من الآباء لما يسمى وفاق ما بعد الحرب فى بريطانيا، وهو وفاق

لم يواجه أى تحد مهم، وكما قال براوننج، كان الرب فى سماواته وكل شىء كان على ما يرام فى الأرض. لقد كانت خمسينيات القرن العشرين بحق هى أعلى ما وصلت إليه إنجلترا الأنجليكانية.

ويصف كوريللى بارنت فى مسلسله ذى الأجزاء الأربعة «Pride and Fall» هذا المشهد لعالم جديد يبنى فى بريطانيا ما بعد الحرب، بينما أستأنفت بريطانيا نفسها مكائتها كقوة عظمى، تحت اللافتة التى تدعو للسخرية «القدس الجديدة» لقد كان ذلك اسماً اعتادت كنيسة إنجلترا عليه (بدون التهكم)، وكذلك حزب العمال ومهندسو دولة الرفاهية الذين خططوا لها زمن الحرب. والواقع أن هذه كانت هى الكيفية التى رأوا بها ما كانوا يفعلونه. فقد ظنوا أنه من الممكن، حقاً، قيام هذه الدولة، وأنها كانت مهمتهم. وإذ خاضوا حرباً جيدة ضد هتلر، كانوا على أعتاب الأرض الموعودة. ويقول بارنت من ناحية أخرى، أن حكم التاريخ إنها كانت إضاعة فرصة فريدة لإعادة بناء اقتصاد وطنى. وهو يكتب:

«كان . . . الشعب البريطانى بأسره هو الذى شارك فى حمل المسؤولية مع السياسيين لكل الأعباء والضغوط الزائدة الهائلة التى تنشأ عن هذه الفتازيا التى فرضت على بريطانيا فيما بين نهاية الحرب العالمية الثانية والعبث النهائى فى خداع النفس النهائى فى مغامرة حرب السويس. ومع ذلك فإنهم هم الذين شاركوا بنفس القدر فى تحمل مسؤولية السبب الثانى فى العبء الاقتصادى فيما بعد الحرب، أى «القدس الجديدة». إذ إنهم طلبوا، ووعدهم السياسيون، أنه سوف يتم دوغما تأخير تحقيق البرنامج الذى وضع زمن الحرب لرفاهية الدولة من المهد إلى اللحد، رعاية صحية مجانية، توظيف كامل، ومنزل مثالى لكل أسرة».

وعلى الرغم من أن تمبل كان كبير أساقفة كانتربرى لفترة قصيرة، ولكنها ذات أثر باق، فإنه حكم تيار الفكر الأنجليكانى الرئيسى منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى. فقد كان رئيساً للجنة العقيدة التى كانت تجتمع فى سنوات ما بين الحرب، ثم تخلت تدريجياً عن محاولة صياغة لاهوت أنجليكانى متمايز. وقد أسس تقريرها الذى نشر سنة ١٩٣٨م، مقارنة إذا لم تكن هى ما يؤمن به الأنجليكان، فقد كانت عن كيفية تصديقهم إياها على الأقل. إذ رفض تمبل فكرة المذهب الدقيق

والأكيد، وهى مقارنة قدر لها أن تكون قياسية فى كنيسة إنجلترا بعده. فقد كان يفضل أن يضم إليه كل أولئك الذين يريدون أن يطلق عليهم اسم مسيحيين، بدلاً من أن يمتحنهم بالتعريفات اللاهوتية التى لا تجلب سوى استبعاد المتردد. ويقول جيمس كنت عنه:

«انطلق تمبل لكى يعطى رؤية متماسكة منطقياً للعلاقة بين المسيحية والفلسفة، وقد فعل هذا بأن أخذ فكرة الغاية كفكرة مركزية لفهمنا للكون. وقد كانت حجته أن غاية عالمية لا يمكن أن توجد دون الوجود النشط لإرادة حقيقية، تكمن وراء العالم. والفعل القصدى يجب (أو هكذا بدا الأمر لتمبل) أن يكون شخصياً، وهذا بدوره يشى بأن «الغاية الخلافة» وراء العالم يجب أيضاً أن تكون مرتبطة بالإله شخصياً. وبهذه الطريقة بنى تمبل فكرة الإرادة الإلهية الحاكمة، أو الإله الشخصى».

ويحتاج المرء إلى أن يكون حذراً من مصطلح «الرب الشخصى»، لأنه مصطلح مربك تماماً، ويفضل التسويق الحديث، مع المفهوم المختلف تماماً عن الرب الذى يصنعه المرء لنفسه، أو الرب الذى تم تصميمه لكى يناسب حاجات المرء «الشخصية» الخاصة أو ميوله الخاصة (مثلما يحدث فى أى بنك نمطى للمدخرات عندما يقوم بتطوير قرض شخصى يناسب ظروفك الخاصة). وثمة سؤال منتظم يطرحه الباحثون فى الاعتقاد الدينى هو «هل تؤمن بإله شخصى؟ (وقد سجل أحد الباحثين إجابة عنه تقول: «لا إننى أو من بالإله العادى فقط»). ولكن ما يسبب حيرة مثل هؤلاء الباحثين ممن يستطلعون الرأى العام، هو أن عدد الذين يقولون نعم أقل كثيراً من عدد الذين يزعمون أنهم يؤدون الصلاة بانتظام.

وعلى أية حال فإن معنى «الإله الشخصى» فى اللاهوت الذى وضعه تمبل (وفى السؤال الذى وضعه الباحثون فى الاستبيان) لا يختلف فى الواقع عن «هل تؤمن بإله يمكن أن يستمع إلى صلواتك؟ فالإله الشخصى فى هذا السياق يعنى إلهها يمكن للمرء أن يتواصل معه وأن يرتبط به. وتمبل يستخدم كله «شخصى» بهذا المعنى، وليس بمعنى «مصمم حسب مواصفاتك الخاصة». وبعبارة أخرى، فإن الإجابة غير المتوقعة «لا إننى أو من بالإله العادى فقط» كانت هى الإجابة

الصحيحة . إذ إن أولئك الذين قالوا لا للإله الشخصي كانوا يحاولون أن يكونوا صحيحي العقيدة، ويميزون أنفسهم عن مفهوم العصر الحديث أو ما بعد الحداثة الذى يقول: «لك ربك ولى ربي» . ومن المثير للسخرية أن رفض تمبل للمعايير العقيدية أساساً لعضوية كنيسة إنجلترا ربما يكون حقاً هو الذى أرسى أساس المقاربة بعد الحداثة «ربك/ ربي» «للديانة الشخصية» بالمعنى التسويقي الحديث .

إذاً كانت رغبة تمبل فى تحديد عضوية الكنيسة القائمة لتضم الجميع قدر الإمكان تعبيراً عن نزعه المتفائلة . وكان من حسن التوافق أن حالة البلاد فى وقت التتويج سنة ١٩٥٣م كانت جيدة . وكان اسم الملكة الجديدة إليزابيث تذكراً مباشرة بملكة سابقة تحمل هذا الاسم، هى الملكة الطيبة «بس» التى تحفظها الذاكرة الشعبية . وكانت الحرب قد انتهت منذ ثماني سنوات . وكانت الأمة لديها إحساس قوى بأنها قاتلت بشكل جيد، من أجل قضية صحيحة . وكانت السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة سنوات صعبة، ولكن بحلول سنة ١٩٥٣ كانت الأحوال آخذة فى التحسن، كما كان نظام الحصص قد انتهى إلى حد كبير، وعادت البضائع إلى المحلات، والدمار الذى أحدثته القنابل كان يختفى من المناطق الحضرية . وكانت دولة الرعاية قد بدأت تجعل الأمر يبدو كما لو أن الظروف القاسية التى سادت ثلاثينيات القرن العشرين لن تعود أبداً . وقد وضعت الصناعات الرئيسية فى الملكية العامة، وعند هذه النقطة كان ما يزال هناك تصور بأن ذلك سوف ينهى بسرعة نضال اتحاد التجارة . وخدمة الصحة الوطنية - التى كانت تقدم علاجاً طبيياً مجانياً للجميع - كانت رمزاً أولياً لبريطانيا الجديدة المتحدة المهتمة . وبدا كأن رابطة جديدة تجمع بين الحكام والمحكومين قد تشكلت فى سنوات ما بعد الحرب، وقد تورطت الدولة كثيراً فى التفاصيل اليومية لحياة الناس . وكانت دولة مسيحية وحنانية، دولة جعلت شاغلها أن تلعب دور السامرى الطيب مع أى مواطن محتاج .

وكانت بشرى النجاح الوطنى شائعة فى الصحافة فى ذلك الصيف الذى تم فيه التتويج، البعثة البريطانية التى تسلقت قمة جبل إيفرست للمرة الأولى . (وفى الحقيقة أن متسلقى الجبال الذين وصلوا إلى القمة كانوا نيوزلنديين، ومرشد من نيبال، بيد أن هذا لم يكن يبدو مهماً) . كما أن التتويج نفسه كان يفيض بالأبهة

والرومانسية؛ إذ كانت الملكة الجديدة شابة وجميلة، كما أن زوجها كان وسيماً بشكل مذهل (وكان بطلاً من أبطال الحرب)، وكان الاثنان أبوين محبين لعائلة ناشئة. ولم تكن كنيسة إنجلترا بحاجة إلى التشجيع لكي ترسمهما في صورة العائلة المسيحية المثالية، نموذجاً يجب على البلاد بأسرها أن تعجب به وتتطلع إلى تقليده (إذا لم يكن في أسلوب الحياة، ففي الفضائل المنزلية على الأقل). هذه الصورة لعائلة سعيدة على نحو لا يكاد يصدق في قصر باكنجهام، صارت شيئاً مثل الرسالة الجوهرية التي حملها حفل التتويج نفسه. انظر كيف تفعل المسيحية الأنجليكانية المعتدلة المعقولة حينما تتاح لها الفرصة، حسبما قيل آنذاك. وقد تكررت الرسالة في ألف خطبة وموعظة كنسية.

وغنى عن القول، إن ما كان يجري حقاً في البيت الملكي كان خافياً عن رؤية العامة، وكان السبب في ذلك راجعاً إلى حد كبير لأن الصحافة كانت تقبل دون مناقشة عادة التبجيل والاحترام للشأن الملكي. وكان ما حصل عليه العامة أسطورياً أكثر منه حقيقة. ولكن لا شك في أنهم كانوا يفضلون الأمور على هذا النحو. وكان أحد أغراض التتويج هو إضفاء قدر من الغموض الصوفي على الشخص المملوك بحيث ينحيم جانباً عن البشر العاديين. وعلى الرغم من أن هذه الصوفية ليست مسيحية بالضرورة. نفس هذا الغموض كان يحيط بالإمبراطور الياباني وعائلته الملكية. فإن أريج هذا الشعور بالخصوصية والتميز كان دينياً بالقصد؛ إذ إن التبجيل الصوفي والتبعية الدينية التي قال عنهما والتر بيجهوت إنهما كانا «أساساً للملكية الحقيقية»، كانا في حالة سليمة تماماً.

وملاك هذه الخاصية الصوفية للملكية، فوق ذوات كل الأشخاص الملكيين الذين يرتدون التاج، فهم لذلك كانوا مختلفين وأكبر من الحياة، وأكثر أمانة وذكاءً وجمالاً، وأكثر امتيازاً وهم فوق كل نقد. وكانت كل إمكانيات الكنيسة والدولة تستخدم للإبقاء على الصورة هكذا. وكان هذا أيضاً جزءاً من الأخلاقيات الأنجليكانية عند بداية خمسينيات القرن العشرين: وكان هذا أيضاً متضمناً في الرسالة التي كان المقصود أن يحملها التتويج. فقد كان يضيف مزيداً من الخلاوة على الإحساس الإنجليزي بأنهم أمة خاصة باركها الرب بشكل فريد.

كانت الاستمرارية أيضاً جزءاً من الرسالة . وقيل إن تلك كانت أمة قديمة وترجع كثير من تقاليدنا إلى ألف سنة أو أكثر . وعادة وضع تاج على رأس الملك ، أو الملكة ، باعتباره أعلى علامة على السيادة ، يمكن إرجاعه إلى الأباطرة الأوائل بعدما جعل قسطنطين الإمبراطورية مسيحية بصورة رسمية سنة ٣١٣ م . ويذكر هربرت ثورستون في دائرة المعارف الكاثوليكية «Catholic Encyclopaedia» ، أن فالتيان (٣٦٤) ، وابنه جراتيان (٣٦٧م) قد توجا عندما توليا الحكم الإمبراطوري :

قام البطريرك أناتوليوس سنة ٤٥٠م بتتويج مارشيان وبذلك الفعل وضع أصل احتفال صارت له أهمية من أعظم ما يمكن في المفهوم اللاحق للملكية . وفي البداية يبدو أنه لم تكن هناك فكرة عن إضفاء أية خاصية دينية على هذا التتويج : وربما كان اختيار البطريرك ببساطة راجعاً إلى الرغبة في التخلص من الغيرة وتجنب إعطاء الذرائع لأصحاب المزاعم الأقوى في نيل هذا الشرف . ولكن في سنة ٤٧٣م بالفعل ، عندما تم تتويج ليو الثاني في حياة جده ، نجد البطريرك أكاسيوس لا يمثل بشخصه فقط في الاحتفال ، وإنما يتلو صلاة قبل مراسم التتويج . ولو كان جد ليو وليس أكاسيوس هو الذي فرض ذلك فعلاً ، لكان على أساس فقط من القاعدة المرعية ، بأن الإمبراطور الحاكم في حياته هو المصدر الوحيد للشرف حينما يختار أن يسبغ أي جزء من سلطته لزميل أو شريك . وإذا تم اتباع التدخل الأول من البطريرك بدقة ، صار العنصر الكنسي في احتفال التتويج يتطور بسرعة . وعند انتخاب أناستاسيوس (٤٩١م) كان البطريرك حاضراً في اجتماع مجلس الشيوخ والأعيان عندما قاموا باختيارهم الرسمي ، والإنجيل في وسطهم . . . ولا يجري التتويج في مبنى مقدس ، ولكن الإمبراطور يقسم قسمًا بأن يحكم بالعدل ، وثمة قسم آخر مكتوب يؤخذ منه بواسطة البطريرك بأن يحافظ على الدين كله ، وبألا يحدث أية بدعة في الكنيسة . . . ثم بعد أن يكون الإمبراطور قد منح جزءاً من الفخامة الملكية ، قام البطريرك بالصلاة ، ثم أنشد كيرياليسون(*) ، ثم وضع على سيده العباءة الإمبراطورية والتاج المرصع بالجواهر . ومظاهر التهليل أيضاً التي تصاحب خطبة الإمبراطور التي تحمل الوعود المعتادة عن العظمة ، وتعقبها هتافات دينية الطابع ؛ مثل «ليحفظ الرب الإمبراطور المسيحي» .

(*) تعنى في الصلوات المسيحية : يارب ارحم .

وقد وجد ثورستون دليلاً على كل من التتويج والمسح بالزيت في طقوس التتويج التي كانت مستخدمة قبل الغزو النورمانى . وكان الشكل مستقراً بصورة أو بأخرى حسب الشكل الحديث ، ناقصاً عناصر ما قبل الإصلاح الدينى التي يظن أنها كانت ذات أسلوب كاثوليكي روماني ، فى تتويج إدوارد الثانى سنة ١٣٠٧ م . وصار هذا الطقس يعرف باسم «Liber Regalis» [أى العمل الملكى]: «وقد يقال حتى فى الوقت الحالى إنه يشكل الأساس للطقوس التي يتم بها تتويج ملوك بريطانيا العظمى» حسبما يقرر ثورستون .

وعندما تولى دكتور فيشر بوصفه رئيس أساقفة كاتربورى رئاسة حفل تتويج الملكة إليزابيث سنة ١٩٥٣ م ، كانت السابقة التي أُرست هذا الفعل قد جرت قبل حوالى ١٥٠٠ سنة . وعندما كان يضع التاج على رأسها ، شعر أن الأمة كلها كانت تحبس أنفاسها ، كما قال هو فى وقت لاحق . فقد كان التتويج فى تلك السنة أول احتفال عام كبير ينقل بالتلفزيون على اتساع بريطانيا العظمى ، وكان واضحاً من الحالة النفسية الوطنية أن كل أولئك الذين كانوا يشاهدون شاشات التلفزيون كانوا جزءاً من الفعل شأنهم شأن أولئك الحاضرين فى دير وستمنستر . وقد نصحت الصحف قراءها بأن يقفوا تحية للنشيد الوطنى ، حتى ولو كانوا فى بيوتهم .

والمكانة التي أسبغت على الملكة ، مؤداها أن الفعل المقدس ختم على الروابط المقدسة بين الحاكم والمحكوم ، ومن ثم قالت شيئاً غامضاً وشاملاً فى أن عن هوية الأمة نفسها . بيد أنه لم يكن عقداً بين الملكة والشعب . وإنما كان ميثاقاً بين الملكة والرب . وتم ختم الميثاق بفعل من جانب الدولة ، وليس بأى فعل من جانب كنيسة الدولة لصالح الدولة . والأمة كلها ، سواء من كانوا أعضاء فى كنيسة إنجلترا أو أية جماعة دينية أخرى ، أو ليسوا أتباعاً لأية كنيسة على الإطلاق ، كانت داخله فى الأمر . إذ كانت الأمة تتصرف مثل كنيستها ، وكانت مخولة تماماً أن تغير الاحتفال وتبدله إذا شاءت . وبمعنى ما ، لم يكن يهم من الذى وضع التاج على الرأس الملكية . ولكن تبديل الاحتفال لم يكن هو مرتبط الفرس ؛ لأنه كان يرمز إلى الكيفية التي كانت عليها الملكية القديمة ، وكيف أنها مستمرة . وحقيقة أن المعنى الدقيق لمختلف التفاصيل فى الاحتفال قد ضاعت فى ضباب الزمان لم تكن نقيصة ، حتى ولو جعلت تلك اللحظات غير مفهومة بالنسبة لأولئك الذين يشاهدون أو الذين

يشاركون فى الاحتفال . إذ كان يكفى أن إدوارد الثانى قد فعل هذه التفاصيل المختلفة فى سنة ١٣٠٧م . وقد تمرغ المعلقون بإيجابية فى غموض مثل هذه الأشياء التى يتضمنها التتويج ، . . ومنها خاتم الكرامة الملكية الذى توافق قبول الملكة له مع صلاة كبير الأساقفة : «بينما أنت فى هذا اليوم يتم تكريسك رئيسة وأميرة علينا ، فكذلك استمرى بثبات مدافعة عن دين المسيح : إذ إنك إذا كنت غنية فى العقيدة ومباركة فى كل الأعمال الخيرة ، فسوف تحكمين معه هو ملك الملوك ، له المجد إلى الأبد ومنذ الأزل . آمين» .

واللغة العتيقة تضىف المزيد من السرية والغموض من نوعية ذهبية . فقد خرجت الملكة المتوجة من دير وستمنستر من الأضواء لتبدو شخصية مشعة وذهبية . وعلى الرغم من أنه ربما لم يكن قد استخدمت هذه اللغة ، فإن الأمة أحست أنها قد مرت بسر من الأسرار المقدسة - ليس واحداً من السرين اللذين تعترف بهما كنيستها ، ولا حتى من الأسرار السبعة التى تعترف بها روما ، ولكنه سر مقدس آخر ، إنجليزى تم اختراعه ، جعل من اللغة لغة مقدسة ، ومن خلال اللغة كانت الأمة بأسرها قد اكتسبت شرعيتها . والتقاليد التى يقوم هذا على أساسها ترجع إلى ما قبل حركة الإصلاح الدينى الإنجليزى ، على نحو ما يتذكر شكسبير فى مسرحية ريتشارد الثانى : «لا يمكن لكل مياه البحر الهادر أن تمحو الشرف عن ملك مسح بالزيت المقدس» .

ويصف إرنست كانتوروفيتز فى كتابه :

The Kings two Bodies :

A study in Medieval Political Theology .

هذا بأنه نظرية أن للملكية ذاتين ، ذات مقدسة وذات طبيعية (وهو صدى لوصف المسيح بأنه إله حقيقى وإنسان حقيقى) وهى فى القدرة الأولى تمثل المسيح الذى تحوز السلطة السياسية باسمه .

وآخر مرة كان مثل هذا التقديس للملكية على ذلك القدر من الوضوح ، كانت فى عهد سميتها ، إليزابيث تيودور . وقد زاد هذا من وهم أن عصرًا إليزابيثيا ثانيا قد بدأ لتوه ، وفيه ستعود بريطانيا (وإنجلترا خاصة) إلى العظمة التى كانت مباركة خاصة من الرب لها .

ومع استمرار الملكية ، استمرت الأرستقراطية والطبقية الاجتماعية . وفى كتاب

«England An Eley» يصف روجر سكروتون كيف كان هذا التأثير الذى يسبب الاستقرار يعمل :

«كانت الملكية والطبقية الوراثة على السواء طريقتين من خلالهما كان للماضى والمستقبل صوت فى سياسات الحاضر؛ إذ إن طبقة الأشراف الوراثة، كما كانت مفهومة تقليدياً، تسببت فى أن المنصب السياسى يرتبط بالمكانة الاجتماعية الراقية، كما يرتبط بلقب يتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بقطعة من إنجلترا. . . ومن ثم فإن المجلس الأعلى فى البرلمان (مجلس اللوردات)، تكون إلى حد كبير من أناس كانت مصالحهم ليست هى المصالح والاهتمامات قصيرة المدى للأحياء من البشر، ولكن المصالح بعيدة المدى للأقاليم. وأول مثل هذه المصالح يتمثل فى رغبة عميقة راسخة فى الاستمرارية الاجتماعية والسياسية؛ إذ إن الامتياز الذى تجلبه الوراثة لا يمكن تأمينه سوى إذا كانت الترتيبات الاجتماعية والسياسية التى ترفه مستمرة فى الوجود. ومن المحتم، بالتالى، أن مجلساً أعلى وراثياً سوف يرى نفسه حامياً أو وصياً على الميراث الاجتماعى والسياسى، وإلى ذلك المدى سيكون كاجاً للعملية الديموقراطية».

وربما يكون مستحيلاً أن نتصور ملكية دوغما أرستقراطية من نوع ما، ولكن الأرستقراطية البريطانية كانت فى طبقة خاصة بها. لقد كانت هى الهرم الصلب الذى تقف الملكية على قمته. كانت هى مصدر صحة البلاط التى أحاطت الملكية نفسها بها. لقد كانت هى مصدر الدماء الجديدة عندما كان المرشحون للعرش بحاجة إلى زوجات أو أزواج. وبصورة جماعية كانت تشكل مجلس اللوردات الذى كان يعطيها القوة السياسية المباشرة، كما أن الأرستقراطية، مع كنيسة إنجلترا، كانتا تقدمان الشخصيات الدرامية التى لعبت أدوارها فى ذلك الزمان.

وفضلاً عن ذلك فإن الأرستقراطية البريطانية مرتبطة تقليدياً بحزب المحافظين، الذين عاد زعيمهم الأرستقراطى ونستون تشرشل (المولود فى قصر بلنهايم) إلى مشهد انتصاراته زمن الحرب، فى ١٠ دوانج ستريت، قبل ذلك بستين. وقال فى حديث أذيع بعد الانتخابات إنه كان يشعر أن هناك «إحساساً متنامياً بالحاجة إلى إعادة بريطانيا إلى مكانها الصحيح، وهو إحساس تتحرق قلوب الناس إليه بعيداً عن صفوف أى تنظيم سياسى».

وكانت خسارة الانتخابات سنة ١٩٤٥م أمام حزب إصلاحى، وليس حزباً ثورياً، هو حزب العمال، هو الذى دفع المحافظين إلى القيام بعملية مراجعة أساسية لسياساتهم، وساعدهم على تقديم أنفسهم سنة ١٩٥٠م وسنة ١٩٥١م على منصة جديدة تماماً، مصنوعة إلى حد كبير مما أخذوه عن حزب العمال. أما حزب الأحرار الأصغر، الذى يقف فى منتصف الطريق بين المحافظين والعمال، فقد رفض عرضاً ببعض الكراسى فى الوزارة، بيد أن العرض بحد ذاته كان مقياساً يدل على الوفاق. (وحتى هكذا، كسب المحافظون الأغلبية من مقاعد البرلمان دون أن يفوزوا بالأغلبية فى أصوات الناخبين) هذه المقاربة الوفاقية والوحدوية إلى الحكومة من جانب المحافظين أخذت تطلعاتها من تقرير دزرائيلى فى منتصف القرن التاسع عشر عن مذهب المحافظين «أمة واحدة» والذى تم تصحيحه على أساس سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء. وهو ينسجم تماماً مع مذهب الأرسطراطية Noblese Oblige أى واجب نبلاء المولد فى أن يكونوا نبلاء وكرماء تجاه من هم أدنى منهم اجتماعياً.

والأرسطراطية هى الحكومة الإقطاعية القديمة فى بريطانيا فى فراء جديد؛ أى أن حزب المحافظين هو القناة التى من خلالها احتفظت الأرسطراطية بيدها على آلة السحب الوطنية. ولذلك كان «الحزب الطبيعى للحكم»، الذى يقوده أبرز رجال الدولة فى العالم، تشرشل، مسئولاً عن مصائر الأمة عند بداية العصر الإليزابيثى الجديد (كما كانت الصحف تجاهر به). ولقى تشرشل نفسه أسمى تكريم ملكى، فقد تم تعيينه فى رتبة Knight of the Garter فى تلك السنة. وحقيقة أن الأغلبية الكبرى من النبلاء والأشراف كانوا من حزب المحافظين، كانت تعنى أن المجلس الأعلى فى البرلمان به أغلبية من المحافظين، ولكن فى سنة ١٩٥٣م، لم يبق منهم سوى قلة، وكان ذلك يبدو أنه النظام الطبيعى للأشياء.

وكانت مغازلة رئيس أساقفة كانتربرى لحزب العمال محل ملاحظة بالفعل. ولكنه كان قدر المحافظين خلال قرنين من الزمان أن يكون الحزب الطبيعى للعرش والكنيسة. وقد تماشى الأغلبية الكبرى من رجال الكنيسة الأنجليكان مع هذا. ومن ثم، فإنه بهذه الطريقة كانت إحدى رسائل التتويج سنة ١٩٥٣م بمثابة ثورة مضادة. وقيل إن الثورة الاشتراكية التى تنادى بالمساواة، وحتى النزعة الجمهورية التى يحض عليها أولئك الذين على يسار حزب العمال، لم تكن على الطريقة

الإنجليزية؛ وكون أن حزب العمال قد أمسك بزمام الحكم لفترة قصيرة في السنوات التي أعقبت الحرب، وهو جزء من الطريقة التي تطيح بها الأمة من حين لآخر بالمحافظين؛ بسبب تخلفهم عن حقائق العصر؛ وكون أنهم عادوا الآن إلى صهوة الجواد، فإن حزب النزعة الوطنية يمكن أن يستحق العودة إلى مكانه الصحيح تحت شمس السياسة في زمن يناسب التتويج. لقد كان المحافظون يدافعون عن العرش والكنيسة، ولكن الرأي القائل بأن لكل رجل محطة يجب عليها أن يعرف متى ينزل فيها، له وجاهته أيضاً.

والعلاقة بين الملكية والأرستقراطية وحزب المحافظين والبناء الطبقي الإنجليزي كانت واضحة بما فيه الكفاية، على الرغم من أنها تسببت في إزعاج الإنجليز. فقد كان من الضروري إظهار أنها كانت تخدم غرضاً ما أسمى. إذ كان جميع رجال الكنيسة في إنجلترا يذهبون إلى المدارس العامة وإلى جامعة أوكسفورد وكمبريدج للدراسة، وكان لهم أن يبرروا العلاقة بين الطبقات في إنجلترا على أساس الاعتماد والمسئولية المتبادلة، لصالح الجميع. وفكرة أنه لا يجب أن تكون هناك طبقات اجتماعية إطلاقاً كانت ستبدو فكرة غريبة تماماً عليهم. ولذلك كان التتويج احتفالاً بالطبقة، ولكنه احتفال ببناء طبقي له التزامات مشتركة وأغراض عامة (وبذلك يمكن أن يتوافق مع المبادئ المسيحية). ألم يكن هذا هو الدرس الذي حملته الحرب الحديثة، عندما كان الضباط البريطانيون، وغالبيتهم من الطبقة الوسطى أو العليا، يقودون الجنود من كافة الطبقات الأخرى الذين هم أدنى منهم عسكرياً واجتماعياً لكي يحرزوا انتصاراً مجيداً؟

لقد كانت الطبقة رمزاً كامناً في التتويج. وكان الممثلون الرئيسيون في الدراما إما من الأعضاء الكبار في الأرستقراطية وإما من القساوسة الكبار في كنيسة إنجلترا. وبال اتفاق، لأنه في مقابل كل صف من القساوسة كان هناك صف من النبلاء، كان أساقفة المدن يخاطبون بلقب «سیدی» وهي الصيغة المناسبة لمخاطبة أحد البارونات، وكان كبار الأساقفة يخاطبون بعبارة «صاحب العطوفة»، وهي الصيغة الملائمة لمخاطبة الدوق. وفيما بين القساوسة والنبلاء لم يكن هناك فرق حقيقي على المستوى الاجتماعي. وفي فقرة من مراسم التتويج عندما يجب على المشاركين أن يؤدوا يمين الولاء للملكة المتوجة، كان نظام التقدم نحوها يخضع لنظام طبقي صارم وفقاً للمعايير الطبقية الاجتماعية.

وكان أول من أدى يمين الولاء كبير أساقفة كانتربروري . وعلى أية حال سيكون من الخطأ أن نعتبر هذا بمثابة رمز على أنه في الدستور الإنجليزي كانت السلطة الروحية خاضعة للسلطة الزمنية . ولكن الحال هي أنه في شخص الملك تجتمع السلطتان الروحية والزمنية . ولم تكن هناك في الكنيسة ولا في الدولة سلطة أعلى من سلطة التاج . وهربت ثورستون في مقالته بدائرة المعارف الكاثوليكية ، والتي سبقت الإشارة إليها ، أوضح التأثير الكبير لتتويج أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على تطور التتويج في جميع أنحاء أوروبا قبل العصور الوسطى . وحينما كانت مراسم التتويج تجرى في روما ، كان من ملامح التتويج ولاء الإمبراطور وقسمه بأن يخلص للبابا . والمقابل الواضح لهذه الأدوار في التتويج الإنجليزي الحديث - وهو قسم كبير الأساقفة بالولاء للملكة - يبدو معقولاً أكثر إذا ما نظر إلى الملك على أنه حل محل البابا ، وهو ما كان منذ زمن هنري الثامن يشكل النظرية الدستورية .

وهكذا ركع الدكتور فيشر أمام الملكة ووضع يديه بين يديها ناطقاً بكلمات الولاء ، وهي وعد بأن يخدمها بإخلاص وبصدق . وقد كرر الأساقفة الباقون من كنيسة إنجلترا هذا ، وركعوا جميعاً في أماكنهم . وقام بنفس التصرف دوق إدنبره ، زوج الملكة ، الذي وعد بأن يكون «رجلك على مدى الحياة ، وفي العبادة الأرضية . . .» . والعلاقات التي تفرض هنا كانت في أساسها علاقات إقطاعية - واجب الأدنى في المرتبة الاجتماعية بأن يقدم الحماية بسلاحه لمن هو أعلى منه . وقد تبع الأمير فيليب اثنان آخران من الذكور البالغين الحاضرين من الأسرة الملكية ، دوق جلوسستر ودوق كنت ، وهما بدورهما تبعهما طابور طويل من الدوقات والماركيزات والإيرلات ، والفيكونتات والبارونات . وعندما انتهت مراسم الولاء - ولم يشترك أحد من العامة - دقت الطبول العسكرية ، كما نفخت مجموعة من الأبواق ، وأطلق الجمع كله صيحة مدوية «حفظ الله الملكة إليزابيث ! عاشت الملكة إليزابيث ! عاشت الملكة إلى الأبد !» على حسب ما كان مرتباً في المراسم .

وبغض النظر عن التغير في الجنس ، فإن هذه كانت هي بالضبط كلمات النشيد الذي ألفه هاندل والذي أنشدته الجوقة من قبل ، والذي تم اقتباسه من سفر الملوك الأول ، الإصحاح الأول : ٣٩ (على نهج مسح الملك سليمان) : «حفظ الله الملك ، عاش الملك ، عاش الملك إلى الأبد» . يقول نص العهد القديم : «فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحي الملك سليمان» .

الذى يمكن أن يجده زائر من المريخ عجباً في هذا كله هو أنه يبدو أن له علاقة ما تربط انجلترا مع إسرائيل القديمة، ولكن لا علاقة له البتة ببقية الأراضي التي توجت الملكة لكي تحكمها. فما علاقة كل هذه الإشارات إلى الملك سليمان وصادوق الكاهن وهلم جرا، بشعب سيلان مثلاً أو مستعمرات بريطانيا في جزر الهند الغربية؟ وما الذى كان يفترض أن يخرج به الكاثوليك في كندا أو المسلمون في باكستان من هذه الإشارات؟ لماذا يجب على «مليكتهم» أن تقسم بأن تسبغ حمايتها على ديانة واحدة فقط في جزء واحد فقط من كل هذه الأراضي الكثيرة؟ ولماذا يجب عليهم أن يهتموا بشأن نزاع قديم ما مع الكنيسة الكاثوليكية؟ فالواقع أن سريلانكا (سيلان سابقاً) قد اختارت أن تصبح جمهورية سنة ١٩٧٢ م. كما اختارت باكستان هذا سنة ١٩٥٦ م، وجنوب أفريقيا سنة ١٩٦١. وتبعته بلاد أخرى كثيرة، خاصة مستعمرات بريطانيا السابقة في أفريقيا. وبقيت مستعمرات بريطانيا السابقة في الكاريبي من أملاكها (والملكة هي رئيسة الدولة) وكذلك فعلت كندا، على الرغم من أن الجزء الفرنسى بها بقى قلقاً من أجل الاستقلال الذاتى. وفي استراليا ونيوزيلندا النزعة الجمهورية مسألة حية، على الرغم من أن هذه النزعة موجودة في استراليا أكثر منها في نيوزيلندا. ومن ثم فإنه من السهل استنتاج أن التتويج كان أبعد ما يكون عن جمع شمل بلاد الكومنولث البريطانى والإمبراطورية سوياً، وإنما كان إما عامل تقسيم وفرقة، أو كان خروجاً كبيراً عن الموضوع فيما عدا كونه مشهداً للفرقة ومهرجاناً. لقد كان يتعلق بالإنجليز وهم يحادثون أنفسهم فى مصطلحات لا يفهمها أحد سواهم.

والحقيقة أنه كانت ثمة رابطة، وهى رابطة غاية فى العمق والشمول. وعلى الرغم من أنها كانت ماثلة فى أذهان الشعب الإنجليزى وهو يشاهد حفل التتويج بالضرورة، فإنه لم يحدث أن تم التصريح بها علناً فى أى مكان؛ إذ إن الرابطة بين كل هذه الأمم الممثلة بطرق مختلفة فى دير وستمنستر فى ذلك اليوم من سنة ١٩٥٣، هى أنه فى فترة ما من ماضيها، قد استوطنها أو غزاها أبناء تلك الأمة التى تسمى بريطانيا العظمى والتى تشكلت انجلترا أربعة أحماسها. وكانت القوة الدافعة فى حملة الغزو الكبرى هذه وموجة الاستيطان الكبرى التى صاحبتهما هى بالضبط الاعتقاد الإنجليزى بأن أمتهم قد اختارها الرب وحدها للدور فريد فى تاريخ العالم. وكان دور

هذه الأمة المختارة، التي ورثت مهمة إسرائيل القديمة، هي نشر الحضارة الإنجليزية. أي الحضارة البروتستانتية. في أركان الدنيا الأربعة. وأولئك الذين قاموا وإنما كانوا يقاومون إرادة الرب، ويمكن إزاحتهم جانباً، أو استئصالهم، إذا دعت الضرورة لذلك. لقد كان التتويج احتفالاً بهذا التاريخ غير العادى، وأعطى الأمة الإنجليزية قدراً هائلاً من الرضى. وكانت أوائل خمسينيات القرن العشرين فترة لا تناسب الشعور بالذنب من الاستعمار بحيث تقضى على شعور الرجل الإنجليزي بالفخر بامبراطورية لا تغيب عنها الشمس حتى سنة ١٩٥٣ م. إذ كانت الإمبراطورية شيئاً ينبغى شكر رب الإنجليز عليه. إنه هو الرب الذى جعل هذا ممكناً.

ونتيجة تحليل مراسم التتويج سنة ١٩٥٣ م هي مجرد وضع رصيد كبير من التاريخ والأساطير واللاهوت. وفي قلب هذه الأيديولوجيا (وليس هناك اسم آخر لها) تكمن فكرة الاختيار، ميثاق قائم على أساس علاقة تصنيفية بالتاريخ المسجل فى العهد القديم. وكان الافتراض هو أن التاريخ الإنجليزي سوف يحدث فى خطوط موازية لتاريخ بنى إسرائيل القديم، بحيث إن ما كان حقيقياً وصحيحاً فى تاريخ بنى إسرائيل سيكون أيضاً، وبمعنى ما، صحيحاً وحقيقياً فى تاريخ الإنجليز. ولن تكون التشابهات واضحة على الدوام. كما أن التفسيرات سوف تختلف. ولكن فى كل الأحوال إذا كانت المجلتر غير مخلصه للرب، فإن الرب سوف يعاقبها بالهزائم والمصائب؛ أما إذا كانت المجلتر مخلصه، فإن الرب سيكافئها بالنصر والسلام والازدهار. وبشرط الحفاظ على الميثاق، فإن الرب سوف يتدخل فى أوقات الخطر الداهم. فإن الإعصار الذى ساق أسطول الأرمادا الإسباني إلى الصخور سنة ١٥٨٨ م قد عرف باسم «الريح البروتستانتية». كذلك فإن مثل هذه الثقة لم تكن غائبة فى أوقات أكثر علمانية. إذ إن القصة العتيقة عن هذا الطريق البروتستانتى إلى الخلاص - والتي تروى عن أحد الأفراد ولكن يمكن تطبيقها بسهولة تامة على البلاد بأسرها - كانت هى القصة التى كتبها جون بونيان تحت عنوان The Pilgrims Progress. والبطل يناضل لكى يشق طريقه صوب المدينة السماوية وهو يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً، وينجو من مواجهة مرعبة فى نقطة ما مع عملاقين قبيحين، هما الوثنى والبابا. كان هذا الكتاب الثالث فى ثلاثية بروتستانتية تتألف من النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس وكتاب فوكس

Book of the Martyrs ، وهذه الثلاثية حددت ما ينبغي أن يكون عليه الرجل الإنجليزى البروتستانتى . وحسبما تكتب ليندا كولى ، فإنه بهذه الوسيلة تم تعليم الدرس بأن المعاناة والتعرض المتكرر للأخطار هى من علامات الرحمة ، وإذا ما قوبلت بالصبر والتجلى انتهت بالنصر والفوز تحت رعاية الرب :

« هذه الطريقة فى إضفاء المعنى على الأحوال المعاكسة ، ومواساة أنفسهم فى مواجهتها استمرت بشكل بديل فى القرن العشرين . فأتاء الحرب العالمية الأولى كان جنود بريطانيا فى الخنادق يرجعون باستمرار إلى كتاب Pilgrims Progress ، بل إن البعض كانوا يقارنون أنفسهم بكريستيان بطل الرواية . . . وتشبه أنفسهم بكريستيان كان من الواضح أيضاً أنه طريقة لتشجيع أنفسهم وتقويتها ضد الخطر والمعاناة ، كما أنها طريقة للتأكيد لأنفسهم أن قضيتهم عادلة . وعول البريتون على الثقافة البروتستانتية أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما ساق الألمان الجيش البريطانى خارج فرنسا سنة ١٩٤٠م متقهقراً ، ولم يتم إنقاذ الناجين سوى بجهود عشوائية وجزئية قامت بها جماعات من أصحاب القوارب المدنية الشجعان فى عملية فشل مزرية ، فإن هذه الحادثة تحولت بسرعة على أيدي البريطانيين أنفسهم إلى عملية إنقاذ ميمونة ؛ إذ إنهم بالغريزة وتحت الضغط ضمنوا هذه الحادثة فى التفسير البروتستانتى لتاريخهم ، وصاغوا المبدأ الأخلاقى المعتاد : أن الممارسات المتحضرة بين البريتون المتحضرين قد كسبت بفضل العناية الإلهية ضد عدو قوى وشرير .»

وطبعاً رتب الرب أن يكون البحر هادئاً ، فى هذه الأيام الأربعة الحساسة ، ولو أن عاصفة هبت ، لما أمكن تحقيق مثل هذا الهروب .

وعلى العموم كان البريطانيون ، والإنجليز خاصة ، خجولين من أن يعلنوا هذه العلاقة الخاصة مع الرب ، ويقدر أكبر مما أحس به الأمريكيون . بالتأكيد . من خجل . وعند النظرة الأولى كان هناك الكثير من التعبير الإنجليزى المخفف النمطى فى مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م . إذ كان التباهى أو الإعلان بشكل صارخ أن الإنجليز هم الأفضل . هذه الفناعة العميقة بالخصوصية الوطنية كانت ثمينة بحيث لا يمكن استعراضها . إذ كان يكتفى بالإشارة إليها ، ولا تعلن تماماً أبداً . ولا يعنى هذا أنها لم تكن محل مشاركة عامة . وهناك دائماً بعض أشياء لا يشعر الناس أنهم بحاجة

إلى أن يقولوها، لا سيما حينما تكون متضمنة في المؤسسات الوطنية المألوفة مثل الملكية أو الكنيسة القائمة .

ويمكن استجلاء الحالة الذهنية الإنجليزية فيما بين سنة ١٩٤٠م وسنة ١٩٦٠م من مقالة مؤثرة عنوانها : The Idea of Christian Society كتبها ت . س . إليوت ، الذى كان أثناء حياته يعتبر ليس فقط أكبر شعراء العصر ، ولكنه كان يعتبر كذلك أشهر محلل اجتماعى . وبشكل أو بآخر أخذ إليوت الرغبة فى وجود مجتمع مسيحي ، متمايز عن المجتمع العلمانى أو الوثنى ، وكتب :

«ولكن الثقافة الإيجابية يجب أن يكون لها نظام قيم إيجابى ، ويجب أن تبقى المخالفات هامشية ، بحيث لا تميل سوى إلى تقديم إسهامات هامشية . . . وإذا ما كانت فكرة المجتمع المسيحى مستوعبة ومقبولة ، فيمكن تحقيقها إذن ، فى إنجلترا ، من خلال كنيسة إنجلترا . . . وقد تمسكت بأن فكرة المجتمع المسيحى تتضمن بالنسبة لى وجود كنيسة واحدة ستهدف إلى احتواء الأمة بأسرها . وما لم يكن لها هذا الهدف ، فإننا سننزلق إلى ذلك الصراع بين المواطنة وعضوية الكنيسة ، وبين الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة ، وهو الصراع الذى يجعل الحياة الأخلاقية اليوم غاية فى الصعوبة للجميع . . . » [وهو يعنى بالاحتواء التضمن أو الاحتضان] .

وبعد نصف قرن من التتويج ، صار البريطانيون معتادين على التعامل مع احتفالات الكنيسة باعتبارها ممارسة فى تصريح شاعرى . والأزواج الذين لا يؤمنون بالرب ، أو الذين ليس لديهم قصد بالاستمرار فى الزواج فترة أطول مما يشعرون أن يروق لهم ، يذهبون بانتظام إلى الكنائس الوطنية لكى يقطعوا على أنفسهم عهداً أمام المذبح وأمام الرب القوى «حتى يفرقنا الموت» . وما يزال كثيرون منهم يعمدون أبناءهم - التنصير هو التعبير الأكثر شيوعاً حتى الآن - بينما هم لا يعنون كلمة واحدة من الوعود التى يتطلب منهم أن يتعهدوا بها . وإذا كانوا يعرفون أى شىء عن مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م . فإن من المحتمل أن يفترضوا أن أولئك الذين شاركوا فيه فعلاً قد فعلوا هذا بنفس روح التمثيل الرصينة ولكن دونما إخلاص . وسيكونون مخطئين فى هذا . لقد بدأ تآكل لغة الاحتفال ، ولكن كنيسة إنجلترا كانت ما تزال تحظى باحترام كبير ، ولا يمكن العبث بها . وكان من المفترض أن الخدمات العامة التى تقوم بها تعنى ما قيل إنها تعنيه .

وإذا ما كان مطلوباً القيام بمواءمات عقلية لفهمها، فقد كانت فقط المواءمة من اللغة الواقعية إلى اللغة الرمزية ومن فك رموز الأعمال الطقسية . وكان ذلك ما يزال يمثل نوعاً سارياً من الحقيقة . هذه المقاربة إلى معنى الطقوس الكنسية قيص لها فيما بعد أن يتم التصديق عليها من جانب لجنة العقيدة في كنيسة إنجلترا سنة ١٩٨١م، وهو ما قرر بوضوح أنها كانت تحاول أن تؤسس ما كان منذ زمن طويل الأسلوب الأنجليكاني في هذه الأمور : «إن هذه المعتقدات التي تستحوذ على عقول الناس بالتضمين لها قوة إقناع كبرى من التأكيدات . . . وكلما كانت المذاهب أكثر شمولاً وأساسية؛ فإنه يحتمل أكثر أن يتم حفظها في الأساطير والرموز والطقوس ونماذج السلوك في الجماعة المؤمنة بدلاً من أن توضع بوضوح في الاقتراحات الرسمية» .

ولذلك، إذا كانت أيمان التتويج التي تم القسم بها ذات جزئين عن الإدارة المدنية للكونولث والإمبراطورية التي تضم حوالي ٤٠٠ مليون نسمة، وأربعة أجزاء عن الحفاظ على امتيازات كنيسة إنجلترا، فإن هذا أوضح فقط مدى أهمية كنيسة إنجلترا . وإذا كان هذا صحيحاً حقاً، كما كتب وليم تمبل سنة ١٩٤١م ، أن كنيسة إنجلترا كانت المؤسسة الدينية الفريدة في العالم التي أخذت المسيحية بشكل صحيح، على حين أخذها الباقون بشكل خاطئ، وإذا كان أخذ المسيحية بطريقة صحيحة قد صنع الفرق بين الأرواح الذاهبة إلى السماء بعد موتها أو الذاهبة إلى الجحيم، فإن كنيسة إنجلترا إذن كانت حقاً من الأصول الوطنية، ولها أهمية لا تبارى باعتبارها قيمة مركزية . وكان هذا هو أكثر ما يفخر به الإنجليز ويحمدونه . فقد كان في قلب ميثاقهم مع الرب . والوعود بالإدارة المدنية الحكيمة وبالعدالة والرحمة في ساحات القضاء، كانت ذات أهمية أدنى بالمقارنة مع هذا .

وفيما بعد، كانت كنيسة إنجلترا نفسها تدخل في نوع آخر من التناول لاحتفالاتها وتكرر الكلمات كما لو كانت حقيقية دون أن يكون هناك اقتناع كامل ونهائي بها . وحقيقة أن الأجيال السابقة من الأنجليكان قد أخذوا كلماتها الرسمية باعتبارها أفعالاً حقيقية حرفياً كانت لها قيمة برهانية، بيد أنها ليست تعهدية . ومن الواضح أن عادة رجال الإكليروس في النطق بكلمات رزية في المناسبات العامة، في حين لا يوافقون عليها بينهم وبين أنفسهم، كانت عادة واسعة الانتشار .

ولكن هذه لم تكن حالة الكنيسة سنة ١٩٥٣م؛ إذ كانت مراسم التتويج تعنى أن ما يقال هو المعنى حقاً. وعدم الحفاظ على أن ما يقال هو المعنى قيض له أن يصبح فيما بعد عاملاً قوياً في هدم الثقة العامة في الديانة الرسمية، فقد اعتبرت كلها تدريجياً استعراضاً بلاغياً وأسطورياً ودينياً - أو أنها غير حقيقية بالمرّة. وهذه هي المتاعب التي تنجم عن دستور غير مكتوب، ويمكن أن يتفكك. ولا يوجد شخص إنجليزي يؤمن حقاً بكل شيء كان التتويج قد حدث من أجله: بل إن كثيرين الآن لا يؤمنون بأى شيء فيه. وكل أمريكي يؤمن بكل شيء يدافع عنه الدستور الأمريكي.

وليس هناك بعد آخر لمراسم التتويج لم يكن واضحاً في الحال لأى مراقب من الخارج؛ إذ إن قسم التتويج الذي أقسمته الملكة كان يتضمن الإيماء إلى تهديد غير محدد. فلماذا كان عليها أن تقسم على أن تستخدم «أقصى سلطتها» للحفاظ على امتيازات كنيسة إنجلترا، ما لم يكن أحد آخر، لم يحدد بالاسم، يحاول سرقتها؟ وليس هنا مفتاح يدلنا على طبيعة التهديد سوى كلمات «البروتستانتية الإصلاحية» على ما يبدو. ومن هناك يصبح التهديد أوضح قليلاً. إنه تهديد معاد للبروتستانتية، وبعبارة أخرى هو التهديد الكاثوليكي الروماني - وهو البابا الذي صورته جون بونيان في قصته الخرافية.

والإشارة إلى التهديد الكاثوليكي يصبح أكثر وضوحاً إذا ما أخذ المرء في اعتباره التاريخ الماضي لقسم التتويج في إنجلترا. فقد كان القسم الذي أقسمته الملكة إليزابيث الثانية في دير وستمنستر بالتمسك بالديانة البروتستانتية، كان أحد قسمين يتطلبها القانون الدستوري الإنجليزي. وفي صعودها على العرش بعد وفاة والدها الملك جورج السادس، كان مطلوباً منها أيضاً أن تقسم أمام البرلمان؛ «إنني أعترف برصانة وإخلاص في حضور الرب، وأشهد وأعلن أنني بروتستانتية مؤمنة وأنتى سوف أبقى كذلك، حسب القصد الحقيقي للقوانين، وسوف أضمن التابع البروتستانتى إلى عرش مملكتى، وأتمسك وأحافظ على مثل هذه القوانين قدر طاقتى».

كانت تلك هي صيغة الكلمات التي أقرها البرلمان منذ سنة ١٩١٠م، حينما تمت مراجعتها بناء على إصرار جورج الخامس الذي كان قد اعتلى العرش لتوه بعد وفاة إدوارد السابع؛ إذ إنه اعتبر أن القسم الذي أقسمه أبوه سنة ١٩٠٢م إهانة وعدوانا

على كثيرين من الرعايا الكاثوليك الرومان في الإمبراطورية البريطانية - ولا غرو، فإن كلمات القسم قبل سنة ١٩١٠ درس موضوعى فى كيفية إمكان جعله عدوانيا . وكانت هناك شكاوى مريرة بشأن الكلمات التى لم تراجع فى القسم، جهر بها الكاثوليك فى أيرلندا واستراليا، التى يسكن بها عدد كبير من الأيرلنديين الكاثوليك، وفى كندا التى يسكن بها كثيرون من الكاثوليك الفرنسيين، وكذلك المحاولات المختلفة للتعديلات فى مجلس العموم . ولذلك كانت صيغة القسم سنة ١٩٥٣م صيغة توفيقية .

كان الإعلان الملكى الذى كان على الملكة إليزابيث أن تعلنه أمام البرلمان، والذى أقسمه بالفعل إدوارد السابع وفكتوريا وكل الملوك منذ وليم ومارى سنة ١٦٨٩م بالفعل . كالتالى :

«أنا برحمة الرب، ملك (أو ملكة) إنجلترا وسكوتلندا، وأيرلندا، المدافع عن العقيدة، أنطق برصانة وإخلاص فى حضرة الرب، وأشهد وأعلن أننى أؤمن أنه فى العشاء الربانى ليس هناك حلول لعناصر الخبز والنبيذ فى جسد المسيح ودمه عند عمل القداس أو بعده من جانب أى شخص كان : وأن بدعة أو تبجيل مريم العذراء أو أى من القديسين الآخرين، والتضحية فى صلاة القداس، كما تستخدم الآن فى كنيسة روما، أمور خرافية ووثنية . كما أننى برصانة أنطق وأشهد وأعلن فى حضرة الرب، أننى فعلاً أصرح بهذا الإعلان، ومن ثم كل جزء، بالمعنى الواضح والمعتاد للكلمات التى تليت على، والتى يفهمها عموماً البروتستانت الإنجليز» .

كانت المذاهب التى يجب إنكارها هى المذاهب المميزة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية والتى كانت كنيسة إنجلترا ترفضها، ولذلك كان من الشائع عالمياً أن الكاثوليك الرومان المؤمنين لا يمكنهم أن يقسموا هذا القسم . والمادة ٢٢ من المواد التسع والثلاثين فى ديانة كنيسة إنجلترا أعلنت : «إن المذهب الرومانى الخاص بالتطهر، والمغفرة، والعبادة والعشق الدينى، وكذلك فيما يتعلق بالصور والذخائر المقدسة، وكذلك تبجيل القديسين، هو شىء بعيد التحقيق مبتدع بلا فائدة، ولا يقوم على أى أساس من الكتاب المقدس، ولكنه بالأحرى، رفض لكلمة الرب» . وقد قررت المادة ٢٨ : «إن الحلول أو تحول مادة الخبز والنبيذ فى العشاء الربانى لا يمكن البرهنة عليه من

الكتاب المقدس ، ولكنه خروج على كلمات الكتاب المقدس الواضحة ، ويطيح بطبيعة السر المقدس ، كما أنه أتاح الفرصة لظهور خرافات كثيرة» . والمادة ٣١ أدانت التضحيات فى صلاة القداس ، والتي يشيع فيها القول إن الكاهن قدم المسيح للمريض والميت لكى يرفع عنه الألم أو الذنب ، كما أنها وصمت هذه الأمور بأنها خرافات وتجديف ، وخداع خطير . ومنذ سنة ١٨٦٥ كان على رجال كنيسة إنجلترا أن يعلنوا أن المذهب الذى تتضمنه المواد «يتوافق مع كلمة الرب» التى كان مفهومًا أن من الزيف أن يحلفوا بأنها توافقهم ، وهو ما كان يطلب منهم القيام به من قبل .

وطلب أداء يمين التتويج قد أرسى فى مرسوم الاستيطان سنة ١٧٠١ م . وهذا أيضا يعلن أن أى شخص «يأخذ التاج أو يرثه . . . ويتصلح أو سوف يتصلح مع كنيسة روما أو يتصل بها ، أو ينطق بالديانة الرومية ، أو يتزوج أحد رعاياها . . . سوف يعامل كما لو كان ميتًا من الناحية القانونية بالنسبة لمسألة اعتلاء العرش ، ويتم تجاوزه بحيث يمر التاج إلى من يليه فى أحقية العرش (بشرط ألا يكون من يلونه فى خط الوراثه غير مؤهلين مثله)» . ويعلن المرسوم أيضًا أن «كل من يأخذ هذا التاج من الآن فصاعدًا ، سوف يرتبط بكنيسة إنجلترا ، حسبما قرره القانون المستقر» .

وكون هذا القسم العام غير العادى كان مطلوبًا من الحاكم البريطانى أمر يدعو إلى السخرية إلى حدما . فبحلول سنة ١٩١٠ م لم يعد مطلوبًا من أى من رعاياه أن يقسم هذا القسم . وكان هذا عكس الحالة التى تقدم فيها هذه الكلمات للمرة الأولى ، وتحت ما كان معروفًا باسم «مرسوم الاختبار» - وهو مصطلح يدل على سلسلة من القوانين المضادة للكاثوليكية ، بعضها يمكن تطبيقه على إنجلترا ، وبعضها على أيرلندا ، وبعضها على المستعمرات . ففي البداية ، كان القسم المعادى للكاثوليكية مطلوبًا من الرعايا ، ولكن ليس من الحاكم . وأداء هذا القسم كان شرطًا للتعيين فى وظائف كنيسة إنجلترا ، وشرطًا لدخول جامعتى أوكسفورد وكمبردج ، وشرطًا للالتحاق بالجيش أو البحرية الملكية ، ولا بد من أداء هذا القسم للانضمام إلى السلك القضائى أو للدخول فى عضوية البرلمان .

ويرجع أكثر الأيمانات تطرفًا فى مرسوم الاختبار إلى سنة ١٦٧٨ م . وكانت تلك هى سنة الكشف المزعوم الذى قام به شخص يدعى تيتوس أواتيس لمؤامرة أعدها

عدد من الكاثوليك، وفيهم بعض الهجيزويت، لقتل الملك شارل الثاني وإجلاس دوق يورك (وهو الملك جيمس الثاني فيما بعد، والذي كان آخر ملوك إنجلترا الكاثوليك) على العرش مكانه. وقبل أن تدرك السلطات أن أواتيس قد لفق الأمر كله، كان قد اتهم حوالي خمسة وثلاثين شخصاً من الكاثوليك بتهمة الخيانة، وكان آخر ضحية في سنة ١٦٨١م، هو كبير أساقفة أرملاغ الكاثوليكي، أوليفر بلنك، الذي تم تكريسه الآن شهيداً في الكنيسة الكاثوليكية. وقد كان الكاثوليكي الأخير الذي يموت في سبيل العقيدة في إنجلترا. وقد لحق العار بتيتوس أواتس، وسجن كما فرضت عليه غرامة مالية وتم جلده، ولكنه عاد إلى الحظوة مرة أخرى بعد سقوط الملك جيمس الثاني، وأعطته الدولة معاشاً تقاعدياً.

وكانت هناك أيمانات ضد الكاثوليكية قبل سنة ١٦٧٨م، وكان أحدها يصر على أن من يؤدي القسم يجب أن ينكر حق البابا في عزل أي حاكم إنجليزي (وهو ما نتج عن الحرمان البابوي الذي أصدره البابا ضد الملكة إليزابيث الأولى ومحاولة عزلها سنة ١٥٧٠). بل كان هناك قسم أكثر بساطة يعود إلى القرن السابع عشر ينكر مذهب الحلول الكاثوليكي، تسبب في أن يستقيل دوق يورك من منصبه كقائد بحري أعلى Lord High Admiral. ولكن من دلائل التناقض، أنه بينما كان ممنوعاً بالقانون من خدمة أخيه الملك، فإن القانون نفسه لم يكن يمنعه من أن يصبح هو نفسه الملك. وكان أحد مشروعاته الكبرى خلال فترة حكمه القصير، وأيضاً أحد الأسباب الكبرى في خلعته بواسطة البرلمان سنة ١٦٨٨م، يتمثل في رغبته في إلغاء مرسوم الاختبار أو تعديله على الأقل (وكان قد أوقفه بالفعل في نيويورك حينما كانت لفترة من الزمن تحت إدارته المباشرة باعتباره دوق يورك. بل إنه عين حاكماً كاثوليكياً وموظفاً كاثوليكياً آخر).

وكان بعض الكاثوليك قد حاولوا بالفعل تحييد قوة الصيغة السابقة بأنها لم تكن تعنى ما يبدو أنها تعنيه. ومن ثم جاءت الإشارة الغربية في نسخة سنة ١٦٧٨ إلى «المعنى العادي والواضح للكلمات التي تليت على، كما هي مفهومة بشكل عام من جانب البروتستانت الإنجليز». وعلى الرغم من الدس في اللغة، فلم يكن الكاثوليك يعتقدون أن البابا يمكن أن يعفو الناس من القسم إذا ما تم أداءه. وربما كان البرلمان الإنجليزي يفكر في نفسه. إذ كان يدعى أن له سلطة الإعفاء من القسم، وألغى يمين

الولاء للملك جيمس الثانى بعد أن سيق إلى المنفى سنة ١٦٨٨ م. ورفض ثمانية أساقفة من كنيسة إنجلترا، كان معظمهم معارضين لسياسات جيمس الثانى الدينية، أن يتخلوا عن يمين الولاء الذين أقسموا عليه، وفقدوا وظائفهم. وكان هناك حوالى ٤٠٠ من رجال الكنيسة الأنجليكانية أيضا بين هؤلاء «اللامحلفين».

وقد تم إلغاء مرسوم الاختبار نهائياً سنة ١٨٢٩ م، على الرغم من أن الشائعات بأن الحكومة تنوى إلغاءه كانت أحد العوامل التى أدت إلى أحداث شغب جوردون فى لندن سنة ١٧٨٠ م. والواقع أن الإلغاء الحقيقى لمرسوم الاختبار فى كندا كان من الأسباب التى أسهمت فى الحرب الثورية الأمريكية ضد البريطانيين، ومن ثم استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا. وكان الغزو العسكرى لكندا - بما فيه الحصار القصير المدى للعاصمة كويك - كان أحد أوائل المغامرات التى قامت بها القوات العسكرية للجمهورية الجديدة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وأقلها نجاحاً.

وقد صمم مرسوم كويك الذى صدر سنة ١٧٧٤ م للتعامل مع الأسئلة الكبرى التى ثارت أثناء محاولة جعل المستعمرة الفرنسية فى كندا إحدى مقاطعات الإمبراطورية البريطانية فى أمريكا الشمالية. ومن بين هذه الأسئلة كان السؤال عما إذا كان يمكن جمع مجلس عندما يكون كل سكان مقاطعة كويك تقريباً، من الكاثوليك الرومان، وبالتالي سيكونون بسبب مرسوم الاختبار، لا يصلحون قانوناً لأن يمثلوا الشعب، وما إذا كان سيسمح لممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية بالاستمرار، وعلى أية شروط؛ وما إذا كان القانون الفرنسى أو الإنجليزى هو الذى سوف يستخدم فى ساحات العدالة.

والمرسوم، بإعلانه أن ليس من المناسب دعوة مجلس للانعقاد، وضع سلطة التشريع فى أيدي الحاكم ومجلسه الاستشارى. ولكن ممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية صارت مسموحاً بها، وخولت الكنيسة سلطة الاستمرار فى جمع العشور. واكتسحت أمواج الأحداث مرسوم الاختبار، واستبدل قسم الولاء بحيث يتم السماح للكاثوليك الرومان بتولى الوظائف. وقد أدى هذا إلى انتشار المخاوف فى المستعمرات الأمريكية من أن مرسوم كويك قد يرى إحياء الحكم

الفرنسي؛ لأن فرنسا في ذلك الوقت كان ينظر إليها على أنها من الممكن أن تعادي المستعمرات لحساب بريطانيا.

ولكن دائرة المعارف البريطانية، والتي منها أخذنا هذا الملخص للقصة، سياسية في توجهها أكثر من اللازم. فقد فشلت في أن تذكر التأثير القوي للشعور الخالص بمعادة الكاثوليكية على غزو كندا. فعلى سبيل المثال، كان الكونجرس القاري، الذي اجتمع في سبتمبر ١٧٧٤م، قد عبر عن غضبه الشديد للجمهور البريطاني من أن «البرلمان البريطاني ما كان يجب أن يوافق أبدًا على أن يؤسس في هذه البلاد، أى كويك، ديانة أغرقت جزيرتكم في الدماء». ومن الواضح أن أعضاء الكونجرس كانوا معتادين على اضطهاد البروتستانت في القرن السادس عشر تحت حكم الملكة ماري الأولى الدموية حسيما ورد في كتاب فوكس «كتاب الشهداء - Book of Martyrs»، وأخذوها أمرًا مسلمًا به أن البريطانيين سيوقعون بهم نفس الاضطهاد. وصحيفة Pennsylvania Packet قالت إنه لم يكن هناك أبدا من قبل مثل هذه المحاولات المكشوفة ضد نجاح الديانة البروتستانتية. ويوم البابا في الخامس من نوفمبر (يوم جاي فوكيس بالنسبة للإنجليز) تم الاحتفال به بنوع خاص من الغضب سنة ١٧٧٤م. وعلى أية حال، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى منع واشنطنون جيشه من الاحتفال باليوم، خوفًا من إغضاب أصدقاء أمريكا الكاثوليك الجدد، أى الفرنسيين.

هكذا تغذت الحملة على كندا بنفس الغضب البروتستانتى الذى تسبب في قيام غوغاء لندن بأعمال الشغب بعد ذلك بخمس سنوات، وحرقوا ونهبوا كل ممتلكات الكاثوليك التي استطاعوا العثور عليها في أنحاء المدينة. وكان هدف المشاغبين المباشر هو مرسوم التخفيف عن الكاثوليك الصادر سنة ١٧٧٨م، والذي ألغى بعض العقوبات القانونية على ممارسة العقيدة الكاثوليكية. ولم يذهب إلى المدى الذى ذهب إليه مرسوم كويك بحيث يلغى مرسوم الاختبار، على الرغم من أن اللورد جوردون قائد الشغب كان به هوى إلى افتراض أن ذلك سوف يأتى فيما بعد. ورواية تشارلز ديكنز «Barnaly Rudge» تقدم لنا صورة حية عن الواقعة. ولكن لا غزو كندا، ولا أحداث الشغب في لندن، قد جلبت أية فوائد لزعمائها. إذ تم القبض على اللورد جوردون وحوكم ثم عزل، ولكنه فيما بعد مات بالسجن في مسألة أخرى لا علاقة لها بالموضوع. أما بندكت أرنولد، القائد الأعلى للقوات

العسكرية الذى نجا من الحملة الكندية، فقد خان جماعته لصالح البريطانيين، وهو يصنف بوصفه خائناً حتى اليوم.

هذا العدوان الأمريكى على التراب الكندى حال دون أى احتمال لأن ينضم غالبية الكنديين لجيرانهم الجنوبيين فى التمرد ضد التاج (على الرغم من أن بعض الكنديين البروتستانت المتشددين ارتحلوا بالفعل إلى الجنوب عندما انتهت الحرب ضد بريطانيا)، وكذلك لم تكن الأيمان التى تقسم بكتب الكاثوليكية لصالح أمريكا الشمالية بعد ذلك. وربما كانت لحقيقة أن الكاثوليك من فرنسا حاربوا فى الجانب الأمريكى أثرها على رأى العام الوطنى. والمادة رقم ٦ من دستور الولايات المتحدة، والسارى منذ سنة ١٧٨٩م، أرست مبدأ أنه «لن يطلب أى اختبار دينى أبداً كمؤهل لشغل أى منصب أو وظيفة عامة فى الولايات المتحدة». واستخدام كلمة اختبار يحمل دلالة واضحة؛ إذ إن هناك شرطاً مائلاً مكتوباً فى دساتير معظم الولايات الأمريكية.

ورأى رفائيل فى كتابه *The American Revolution, a Peoples History* صريح بشكل محمود فيما يخص التعصب الكامن وراء الحملة الكندية.

«وإذ كان القادة العسكريون الأمريكيون يأملون فى إحياء الحماسة الوطنية، فإنهم قرروا أن يأخذوا زمام المبادرة بأن يضربوا حيثما يكون البريطانيون ضعافاً. وفى المقابل يصعب رؤية كيف أن غزو مستعمرة أجنبية له علاقة بالحرب ضد الطغيان داخل الوطن، بيد أن الأمريكيين المنغمسين فى الديانة البروتستانتية لم يجدوا مشكلة كبيرة فى صياغة وتلفيق الحافز لغزو معقل الكاثوليكية على حدودهم الشمالية. إذ كانت بريطانيا منذ وقت قصير قد وضعت كل الأراضى غرب الأبالاش تحت السيطرة الكندية، بينما منحت فى الوقت نفسه الاعتراف الرسمى بالكنيسة الكاثوليكية فى كويك. ولاحظ البروتستانت الأمريكيون من كل المذاهب من الشماليين الجماعيين حتى الجنوبيين الأنجليكانيين، التشابه الواضح بين الطغيان السياسى للملك البريطانى والطغيان الدينى للبابا الكاثوليكى: وفى كل من الحالين كان ثمة حاكم مستبد يتدخل فى حرية الأفراد بحيث يحول بينهم وبين أن يعيشوا ويتعبدوا كما يشاءون. وكانت الحملة على كندا، وهى عملية تنظيف قارية باسم

الحرية الدينية والسياسية، تحمل وعوداً بخلع الطاغيتين في الحال. وهنا حدث الشغب الأكبر في يوم البابا- ولم يكتف بحرق الممتلكات هذه المرة. وتكلم أحد قساوسة الجيش عن الكثيرين عندما كتب في يومياته: «كانت مشاهدات بهيجة عن اليوم المجيد للسلام العالمي وانتشار الإنجيل في أنحاء هذه البلاد الشاسعة الممتدة، والتي كانت على مدى العصور سكناً للشيطان ومملكة للمسيح الدجال».

وفي ضوء هذا، فلا غرابة في أنه قبل التوقيع سنة ١٩٠٢م والتوقيع سنة ١٩١٠م كانت الحكومة الكندية تضغط بشدة لتعديل الإعلان الملكي الذي يعلنه الملك البريطاني (والذي كان أيضاً رئيس الدولة في كندا) عند بداية حكمه. وكان المشرعون الكنديون قد تحرروا من اضطراهم لأداء اليمين بمثل هذا الإعلان المجاني والمعادي للكاتوليكية سنة ١٧٧٤م، كما تعين عليهم في الواقع أن يحاربوا لدفع غزو أمريكي كان غرضه الرئيسي، بلا شك، هو إعادة فرض هذا الإعلان بالبنديقية التي تحارب في سبيل الحرية. وكون أن هذا لم يكن موضوعاً محبوباً لدى المؤرخين الأمريكيين لفت انتباه كيثين فيليبس في كتابه «The Cousins Wars»: «بالنسبة لكثير من البريطانيين والمستعمرين البريطانيين في القرن الثامن عشر، كان المذهب الكاثوليكي الروماني مؤامرة يقودها البابا لصالح الديانة الوثنية والحكومة الفردية المستبدة الطاغية... وقد تابع المؤرخون البريطانيون هذا الإصرار الديني بهمة أكثر بكثير من زملائهم الأمريكيين، ولكن كلاً من البلدين قد تأثر بهذا».

وفي كتابه «The Language of Liberty» سمي المؤرخ ج. سي. دي كلارك خبث وقوة المعاداة الأمريكية الشعبية للكاتوليكية: الموضوع المكبوت في التاريخ الاستعماري الأمريكي. وكتاب التاريخ الذي ألفه رفايل يؤكد هذا بدلاً من أن يواجهه؛ لأنه كتب بعد كتابه تعليق فيليبس، ولأنه نوع ما من التاريخ المضاد، نظرة مراجعة للفروض المقبولة في التاريخ الأمريكي.

ويمتدح فيليبس البريطانيين لكونهم أكثر أمانة في هذا الجانب من ماضيهم. حقاً أن كل آثار معاداة الكاثوليكية قد أزيلت من الجوانب العامة والطقسية في دستور الولايات المتحدة، وبداية تولى رئيس جديد مهام منصبه، عملية إذا لم تكن كلها علمانية فهي على الأقل ليست مناسبة مذهبية أو طائفية. ولم يكن هذا قد صار بعد هو المعمول به

فى الطقوس البرىطانية المشابهة ، أى مراسم التتوىج . ولكن الاحتفال الأمريكى ىمىل إلى أن ىعنى ما ىقوله ، على حىن أن الاحتفال البرىطانى لم ىعد ىفعل ذلك .

ولا ىنبغى افتراض أن القصد العمء لأولئك الذىن ىشاركون فى مراسم التتوىج هو عزل أو استبعاد أى كاثولىك حقىقىن أحياء ، بأكثر مما كان قصد الناس الذىن احتفلوا ىوم جى فوكىس فى الیوم الخامس من شهر نوقمبر سنویاً . فالواقع أن رىس الاحتفالات فى دىر وستمنستر یوم ۲ یونیو ۱۹۵۳ - مثلما كان الحال فى حفل تتوىج والء الملكة ، الملك جورج السادس سنة ۱۹۳۷م - كان بحكم التقالید هو الایرل مارشال لانجلترا ، وهو منصب ىتولاه أسمى النبلاء غیر الملكىن فى المملكة وهو الءوق السادس عشر لنورفولك . وقد كان نورفولك كاثولىكاً رومانیاً راسخاً مثل أجداده - إذ كان أحءهم قد كرسه البابا شهیءاً كاثولىكاً فىما بعد فى القرن السادس عشر . ومثلما شرحت بمزىء من التفاصىل فى فصول أخرى من هذا الكتاب ، فإن الوظیفة الحقىقیة لمعاداة الكاثولىكیة فى النظریة الءستوریة الإنجلىزیة منذ عصر الإصلاء الءىنى كانت حمایة الهویة الءىنیة والسیاسیة للءولة الوطنیة الإنجلىزیة ؛ إذ إن الكاثولىكیة الرومانیة تقوض الأساس اللاهوتى لهذه الهویة . وبطبیعة الحال ، فإن هذه المعاداة المؤسسیة للکاثولىكیة ساعء علیها الانحىاز الشخسى ضد الكاثولىك الأفراد . فقد كان من الأسهل إقناع الجماهىر بأن الكاثولىكیة مءانة إذا ما كان أولئك الذىن ىمارسون هذه العقیءة ىصورون على أنهم مستهترون ، بلا أخلاق وءونة (سواء كان ذلك حقىقة أم لا) .

وءمة اعتراض خطیر على هذه الطریفة فى فك رموز التتوىج ىمكن توقعه . وهو أنه على الرغم من الرمزیة فإن أولئك المشارکىن لم ىكن لءیهم أى وقت للمشاعر المعادیة للکاثولىكیة ، وأنهم اعتبروا الیمن بالحفاظ على كنیسة انجلترا ، مثل تحفة قءیمة وبالجملة بقایا فارغة تنتمى إلى زمن غابر (تماماً مثلما لو كان على الملكة أن تقسم على الحفاظ على سجل المآثر فى برج لءنءن) . ومنذ ذلك الحىن فصاعداً تجلت الهویة الوطنیة الإنجلىزیة بثقة فى التتوىج ، بحىث إنها لم تكن بحاجة إلى أن تعرف نفسها بواسطة معارضة بعض الءیانات الأخرى ؛ إذ إن هذا ربما أعطى الكاثولىكیة أهمیة فى هىكل الأمور الإنجلىزى أكثر مما تستحقه بالفعل .

وباعتباره ملاحظة اجتماعية يكتسى الاعتراض بعض الأهمية؛ إذ إن الحالة الفعلية للكاثوليكية في إنجلترا في خمسينيات القرن العشرين كانت حقاً إلى حد كبير لا علاقة لها بالفهم الذاتى الوطنى . إذ كانت لها أجدتها الخاصة، التى كانت تؤثر على بقية الوطن فقط حينما يكون هناك تصادم مصالح . وكما كتبت فى The worlock Archive كانت الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية سنة ١٩٥٣م، تحت قيادة الكاردينال برنارد جريشين، ولأسباب اجتماعية وتاريخية جيدة تماماً، أبعد ما تكون عن العزلة . فقد حافظت على نفسها لنفسها . والواقع أن المراسم الأنجليكانية الخالصة فى التتويج فى تلك السنة ربما كانت مصممة على أساس إبعادها . فقد جددت الوطن بطريقة جعلت الكاثوليك يشعرون أنهم، وإن لم يستبعدوا تماماً، فإنهم كانوا على الهامش . بيد أن الكاثوليك الإنجليز لم يكونوا راغبين فى تحدى الصعود الأنجليكانى بأى حال . ذلك أنهم فضلوا أن يهتموا بشئونهم الخاصة .

* * *